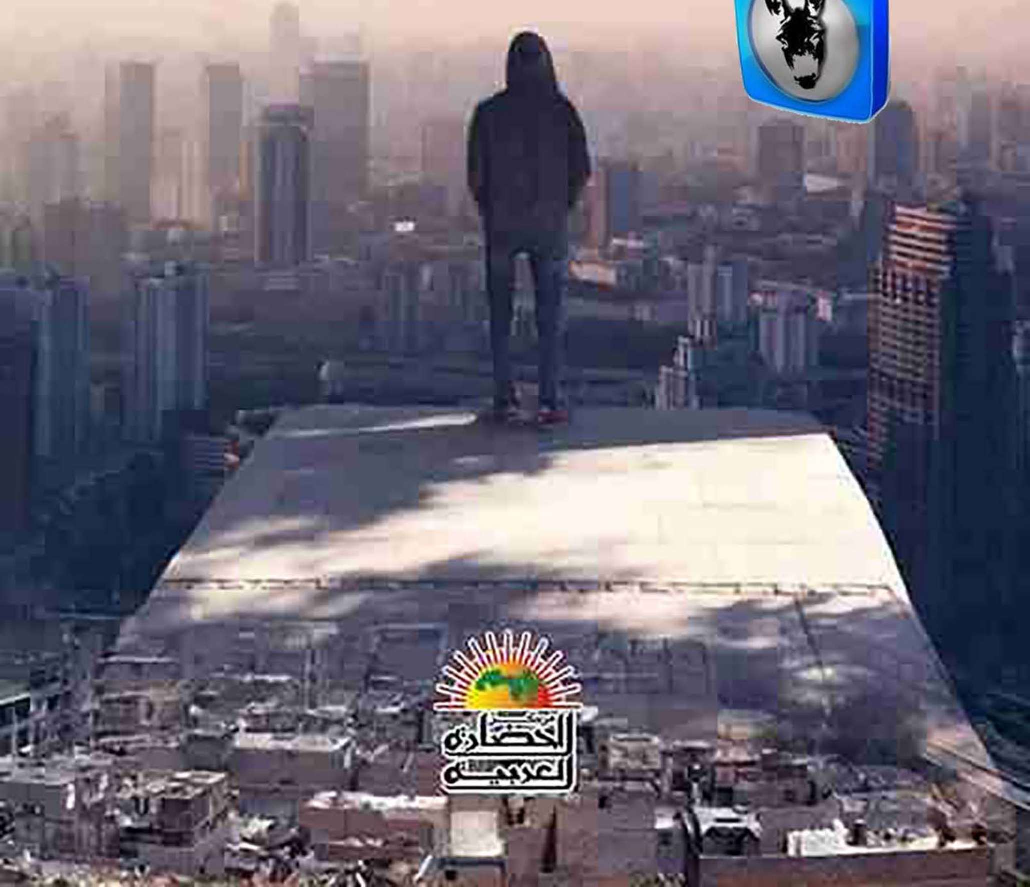
رواية

أحمد سلامة

أبو الدهب

"إمبابة - نيويورك"



الحضارة العربية

- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة، تستهدف المشاركة في استنهاض وتأكيد الانتماء والوعي القومي العربي، في إطار المشروع الحضاري العربي المستقل.
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافي والعلمي مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة.
- يسعى المركز إلى تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب، ونشره وتوزيعه.
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه.
- الآراء الواردة في ما يصدر عن المركز تعبر عن آراء كاتبيها ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية.

◆ ◆ ◆

رئيس المركز

علي عبد الحميد

◆ ◆ ◆

مركز الحضارة العربية

4 ش العلمين – عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات – القاهرة

تليفاكس: 33448368 (00202)

E.mail: hadaraa1990@gmail.com

أحمد سلامة

أبو الدهب

« إمبابة _ نيويورك »

الكتاب: أبو الدهب «إمبابة ـ نيويورك»
رواية

المؤلف: أحمد سلامة

الناشر: مركز الحضارة العربية

الطبعة الأولى: القاهرة ٢٠١٨

تصميم الغلاف: أحمد السيوفي

الجمع والصف الإلكتروني: وحدة الحاسوب بالمركز
الإشراف الفنى والجرافيك: محمد النوبي

رقم الإيداع: ٣٧٢٠/ ٢٠١٨
الترقيم الدولي: 8-356-496-977-978

سلامة، أحمد.
أبو الدهب «إمبابة ـ نيويورك»/ رواية: أحمد سلامة.
ط١. - الجيزة: مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر والدراسات، ٢٠١٨.
٢٢٤ ص؛ ٢١ سم.
تدمك: ٨ - ٣٥٦ - ٤٩٦ - ٩٧٧ - ٩٧٨
١- القصص العربية.
أ- العنوان
٨١٣

إهداء

■ جلسوا يتحدثون عن أحلامهم، وجلست أتحدث عنكم، فمتى نلتقي؟..
سهراتكم هدنة مع الحياة:

_ شوقي دويدار. _ جابر المزين.

■ الكرة التي صوبها الكابتن من سنين عادت أسفل أقدامنا:

_ الكابتن/ أحمد رمزي. _ المستشار/ أحمد راتب.

نموت كي يحيا الوطن

كيف يموت ميت؟

وكيف يحيا من اندفن!؟

يا سيدي خذه بلا شيء

فقط

خلصني من هذا الوطن

أحمد مطر

انتظرتك ألف عام في ليلة..
ركضت نحوك ألف ميل في خطوة..
قلوبنا تهذي..
نحتاج إلى صديق عاقل..
نحتاج أبو الدهب.

ارتبك أمجد على باب القاعة المعدة لاستضافة حفل تأبين الرئيس الكوبي الراحل منذ أيام «فيدل كاسترو».

من فيدل كاسترو؟..

هو لا يعلم.. ولا يهتم ولولا وجود نور في المكان ما فكر في الاقتراب.. نظراتها تستحثه على الدخول.. لم يجد مفرًا.. جلس بجانبها وهي منشغلة بما يدور حولها.. مال عليها:

ـ من فيدل ك . ا . س..

ابتسمت:

ـ كاسترو.. فيدل كاسترو.

ابتسم هو الآخر:

ـ نعم.. من فيدل كاسترو؟

ـ عجبت لك!!.. طالب في الجامعة الأمريكية ولا تعرف..

قاطعها:

ـ مجال دراستي إدارة الأعمال كما تعلمي.. بينما أنتِ تدرسي السياسة والشؤون الدولية.

لم تغِب ابتسامتها:

ـ وليكن..

قبل أن تخبره من هو فيدل كاسترو.. كان قد اعتلى المنصة ثلاثة رجال وسيدتين تباينت أعمارهم وخلفهم صورة معلقة للراحل..

نظر أمجد للصورة وتأملها.. أخذ يحدث نفسه:

ـ من أنت أيها المسن؟.. ما يدور من حولي يقول إنك شخص عظيم.. ماذا قدمت للبشرية أنت الآخر حتى تحتفي بك نور؟.

لحيتك.. تجاعيد وجهك.. زيك العسكري.. ونظرتك الواثقة يدللان على دورك في السياسة والحروب.. لذلك فلا داعي لوجودي هنا..

انسحب أمجد في هدوء ونور لم تنشغل بأمره.. كانت تخوض مع الحضور في سيرة الراحل ودار النقاش لفترة تجاوزت الساعة، ومع اقتراب النهاية تم فتح المجال للحضور للمشاركة في الحوار.. بينما نور تستعد للخروج جاءها صوت تألفه يتحدث برومانسية عن الراحل.. إنه أمجد اعتلى المنصة وأمسك بالميكروفون..

لم تصدق ما تشاهده وما تسمعه.. جددت جلستها وأخذت تنصت في ذهول ..

«اليخت غرانما.. يخت صغير كان من المفترض ألا يستوعب أكثر من 25 رجلًا.. حمل 80 وغاص في البحر باتجاه السواحل الكوبية.. كانت عزيمة الرجال أقوى من قوانين المنطق والطبيعة.. إلى أن كانت ليلة شتوية من ليالي ديسمبر عام 1956م.. عندها وصل الرفقاء إلى أرض كوبا.

فيدل كاسترو وراؤول شقيقه وجيفارا رفيقه على موعد مع بداية ثورة مسلحة ضد الديكتاتور باتيستا.. 80 رجلًا هزموا جيشًا بمعداته الثقيلة والخفيفة.. مروا بهزائم وقُتل الكثير من الرفقاء وكان العزم يتجدد مع كل صباح.

كان لفيدل إيمان كبير بالفلاحين والعمال..لذلك لعب هؤلاء المساكين دورًا كبيرًا بعد أن انضموا للثوار.. وللثورة الكوبية وجه نسائي عظيم تمثل في سيليا سانشيز وهايدي سانتا ماريا.

كانت البداية من جبال سييرا مايسترا.. استولوا على جزيرة سانتا كلارا، وفي 8 يناير 1959م دخلت قوات كاسترو العاصمة هافانا بعد فرار باتيستا إلى البرتغال..

"أرقد في سلام أيها المحرر العظيم.. وسلامًا منا لكل الرفقاء

الذين دافعوا عن الفقراء والعمال والفلاحين ووقفوا ضد إمبريالية المستعمر وعدوان المحتل وخيانة الخائنين".

أمجد السعيد

إدارة أعمال

تــلا كلمة أمجد تصفيق حاد وثنــاء من الجميع ونور لم تتحرك مــن مقعدهــا.. ظلت تراقب أمجــد.. تتفرس في ملامحه.. ابتســامة صافيــة كهدير شــلال مدفون في حضن الورود.. يتحرك بجســده النحيــف بيــن الجمــوع برشــاقة محارب إســبرطي.. اقتــرب بقامته الطويلة وانحنى أمامها فتنهدت في حيرة.. قالت:

ـ من أنت!؟

ـ أمجد.

ـ كيف!؟

ـ أرهقتني نظرتك الجميلة للمســنين فوق المنصة.. لم أتحمل.. كان لا بد أن يكون لي فيها نصيب.

تخدر جسدها.. نظرت حولها فكانت القاعة شبه خالية ولا بد مــن الانصــراف.. قالت برفــق وهي تهرب من روعته حتــى يتثنى لها استعادت قواها:

ـ أصمت الآن يا أمجد ولا تنطق.

في طريق الخروج اهتزَّ تليفون أمجد.. ابتسم:

ـ إنه أبو الدهب.

قالت نور:

ـ ألن تجيب؟

ـ أود أن أحدثــك عنــه أولًا.. محمد أبــو الدهب هو صديقي من إمبابــة.. في نفــس عمري تقريبًا.. يدرس الهندســة في جامعة

القاهـرة.. تزاملنا في المرحلة الثانوية فصرنا أصدقاء.. كلّ منـا له رأي خاص في صداقتنا.. لكننا نردها دائمًا للثانوية.. أنا أردد أمامه "حصلت على الثانوية فكانت المحصلة التردد علـى إمبابة والتردد على الجامعة الأمريكية".. أما هو فيردد "لعنـة الله علـى الثانويـة فقـد أشـقتني بلعنة الهندسـة ولعنة صداقتـك".. أبو الدهب ناقـم دائمًا على الأوضاع السياسـية والاجتماعيـة فـي مصـر.. يحدثني عـن الثورة أكثـر من أي شيء آخر.. بالمناسبة هو من أخبرني عن فيدل ك.ا.س..

لمعت أسنانها وقالت بصوت ضاحك:

ـ كاسـترو.. هـذا لا يمنـع أنـك أجـدت وكان أداؤك رائعًـا.. كنت أجمل ما في الحفل.

ـ كل هـذا مـن أجلك يا نور.. لعلمك أنـا تعلمت من أبو الدهب الكثيـر.. أُؤمـن بالثـورة دون أن أثـور علـى أحـد.. أشـعر بالمسـاكين دون أن أعايشـهم.. أحـب الثـوار والمناضليـن والمحررين من حديث أبو الدهب عنهم.. يرى أن الهندسة في بلد مثل مصر انتحار..

ـ لماذا؟

ـ عندمـا التحق بكلية الهندسـة كان حالمًـا.. كان يريد أن يمد الجسور ويرتب العبث.. من هنا جاءت معانته.

ـ وكيف يتثنى له ذلك؟

ـ لا أعلم.. أحيانًا يتحدث بفلسـفة لا أفهمها.. لكنه يلقي باللوم علـى الجميع.. لا يسـتثني أحـدًا.. يصرخ دائمًـا ويقول "لمصر عشوائيات منها إمبابة.. وللأرض أيضًا عشوائيات منها مصر".

ـ رغـم رفض صديقك للواقع في مصر.. لكـن مثله لو أتيح له العيش في أمريكا مثلًا لن يتحمل وسيعود سريعًا إلى إمبابة.

كان أمجد ونور يتجولان داخل أروقة الجامعة الأمريكية "التحرير" بلا هدف.. لا المباني التاريخية الفاخرة ولا الجنسيات المتعددة تثير بداخلهم قضية الهوية.. هنا في الجامعة الليبرالية العريقة ينصهر كل فارق ويذوب..

في الجامعة التي تأسست عام 1919م قاعة "إيوارت التذكارية" التي شهدت إحدى حفلات كوكب الشرق "أم كلثوم" عام 1937م.. ألقى بها عميد الأدب العربي "طه حسين" أكثر من محاضرة وغيره من المفكرين العالميين.. معها القاعة الشرقية أيضًا.. بالجامعة مكتبة عملاقة من طابقين وملحق بها دار نشر.. هناك معرض "مارجو فيون" لخدمة الفن المصري.. أُطلق على المعرض هذا الاسم نسبة للفنانة التشكيلية السويسرية "مارجو فيون"..

وبالجامعة مقهى يطل على ميدان التحرير.. قصده أمجد ونور.. جلس بعد أن جلست وسألها:

ـ وأنت أين أصدقائك يا نور؟

ردت بابتسامة:

ـ 20 سنة قضيتها في أمريكا و4 سنين في مصر وأنت كل المحصلة.

ـ وهل هذا يكفي؟

ـ نعم.. يكفي ويزيد.

ـ كيف؟

نظرت نور في الفراغ.. نطقت بصعوبة:

ـ رينا السبب.

ـ من رينا؟

ـ رينا هي صديقة عمري في أمريكا.. كانت تكبرني بعام

ونصف.. عشت طفولتي معها.. ولسبب كنت أجهله أبعدتني عن زملاء الدراسة والنادي وكل من اختلطت بهم.. صارت صديقتي الوحيدة.. كنت أخجل من كلمات الحب التي تعبِّر بها عن حبها لي.. من نظراتها إلى جسدي.. صرت مع الأيام بلا شخصية أمامها.. تختار ملابسي وما عليّ إلا أن أرتدي الألوان التي تعجبها.. أبتسم حين تبتسم.. وأبادلها القبلات وكلمات الحب وقتما تريد.. بعد أن احتفلت معي رينا بعيد مولدي السادس عشر سافرت إلى لندن لزيارة أسرة والدها المقيم بنيويورك.. غابت شهرين.. استقبلتها في المطار فكان الاستقبال مفاجأة.. قبلات وعناق ولمسات حساسة ومخجلة..

بخجل قاطعها أمجد:

ـ يمكنك ألا تُكملي.

لم تهتم بمقاطعته وأردفت:

ـ في يوم عودتها أتضح كل شيء.. جاءت اللحظة التي كنت أخشاها.. اللحظة التي بدلتني وغيرتني.. في المساء وبحجة العودة بعد غياب والرغبة في قتل الاشتياق.. تركت لها جسدي وصرت كدمية شاحبة بقلب يعدو أمام الموت.. لم أنسَ هذه اللحظة رغم تكرارها.. البدايات لا تنسى ولا يمحوها الزمن.. أربعة سنوات كان جسدي بمنزلة ساحة قتال للفارسة رينا.. كانت أقوى مني.. تعاتبني بنظرة وتعاقبني بممارسة سادية عنيفة.. كنت أبحث عن هروب بعد أن صارت كل أمريكا بطعم رينا.. كانت الشوارع ناعمة وملساء كجسدها.. سئمت وتملكتني رغبة في التحرش بالزنوج وإقامة علاقة مع أحدهم أقتل فيها ضعفي وأسترد جسدي المحتل.. أتخلص من رائحتها التي لا تفارقني..

عندما بلغت العقد الثاني سألني والدي عن أي شيء أتمناه ليقدمه لي في عيد ميلادي.. لم أتردد كثيرًا وطلبت زيارة مصر فأعجبته الفكرة بل وشجعني.. ولمَ لا وهي بلده التي لا يفوت أي فرصة متاحة للحديث عنها وعن طفولته وشبابه بها.. لم تمانع أمي الأمريكية بزيارة لن يتجاوز عمرها أيام أو أسابيع إن طالت.. كانت بداخلي رغبة أخرى وهي عدم العودة إلى أمريكا الناعمة إذا رضيت والسادية إذا غضبت.. كنت قد اتخذت قراري دون أن أصرح لأحد.. ليلة قدومي للقاهرة كانت كليلة عودت رينا من لندن.. بداية ونهاية.. تركت لها فرصة للوداع وأنا راضية ولم أبخل عليها بشيء ودون أن تطلب.. كنت أعلم مكمن شهوتها والطرق التي تفضلها للوصول إليها.. عندما سألتني عن العودة ضحكت وانتابني شعور بالشفقة عليها.. لقد أحبتني وأنا بضعفي شجعتها فلم ترى غيري ولم تنجذب لأي أنثى أخرى.. لم تفكر في الذكور ولم تذكرهم أمامي إلا بالكراهية والاشمئزاز.. تنقم على أي فتاة سلمت نفسها لذكر.. ترى هل خنتها يا أمجد وقابلت حبها بالغدر والهروب؟

ـ مثلك لا يخون يا نور.

تشجعت أكثر وعادت لتُكمل:

ـ في الطائرة كنت أستعيد نفسي بحجم بعدي عن أمريكا.. تركت أمريكا كالأرض المنهزمة التي داسها الأعداء بغل وشر وانتقام.. هبطت مصر كمنتصرة تبحث عن احتفال يرضي غرورها.. تفاعلت مع أهل لم أعرفهم من قبل بصورة أدهشت والدي وأحبني الجميع.. عند العودة صارحت والدي بالرغبة في البقاء فرفض.. صارحته بحقيقة علاقتي برينا

فثـار في صمـت ولعنها مرات ومـرات.. منحني مُفتاح شـقتنا في الزمالك مع حساب بنكي يلبي كل متطلباتي والتحقت بالجامعة الأمريكية.. أعلمت الآن أين أصدقائي؟

هزَّ أمجد رأسه في أسف:

ـ نعـم.. لـن أسـتطيع أن أمقـت رينا.. يكفـي أنها السـبب في وجودك معي الآن.

ـ لا أريـدك أن تمقتهـا.. ذكرياتـي معها تحولت مـع الأيام إلى شفقة.

ـ كيف هي علاقتك بأمريكا الآن؟

ـ بلد أمي.. هناك يعيش أبي وأخي.. تمنحني جنسـية أتناسـاها وجواز سفر أهملته مع أشيائي المنسية.

ـ ألن تعودي إليها؟

ـ حتمًا سأعود في يوم من الأيام.. لكني لا أريد.. هذه الفكرة ترعبني.

همس أمجد:

ـ لا تعودي.

ـ أحيانًـا أشـعر أنك عائد مـن أحد الأسـاطير الرومانسـية يا أمجد.

ـ وهل هذا يعجبك؟

ـ لا أعلم.. لكني أستيقظ أحيانًا من نومي على صدى همساتك تلك.. أبتسم وأعاود النوم.

صرخ في غضب:

ـ باردة أنتِ كالإنجليز.

ضحكت ضحكة كالموج:

ـ كرينا تقصد؟.. هي من أصول إنجليزية.

تصنع الغضب:

ـ لن أحدثك عن حبي مرة أخرى.

أخرجت لسانها تستفزه:

ـ خيرًا تفعل.. حتى لا أستيقظ من نومي مجددًا.

هتف أمجد:

ـ لعنة الله على أمريكا.

ـ هل تعلم أن العم سام كان يُغتصب في الغابات من قبل الجنود الأمريكين.

ـ كُفي عن السفالة.. بل كان يحمل لهم لحوم البقر.. كان جزارًا.

ـ لك أن تعتقد ما تشاء.. ولي أيضًا ما أشاء.

ضحكت من جديد:

ـ ماذا تعرف عن تمثال الحرية؟

قبل أن يجيب أردفت:

ـ كان هدية من فرنسا لأمريكا.. هو تمثال لسيدة تناوب الفرنسيون عليها.. لم تكل ولم تتعب فأهدوها للجنود الأمريكان بعد موت العم سام.

ضحك هو الآخر:

ـ رفقًا بأمريكا.. يا بنت أمريكا.

ـ لست أمريكية.. أنا مصرية وأجدادي هُم من صنعوا هندسة الهرم ونحتوا تمثال أبو الهول.. أتعلم لماذا كان أبو الهول؟

ـ أعتقد لحراسة المقابر.

ـ بلى.. أبو الهول نُحت ليشـهد على وضاعة العم سـام وسـفالة سيدة تمثال الحرية.

ـ حقًـا.. أنت مصريـة وبعيدة عـن أمريكا كبعـد أبو الدهب عنها.. لا بد أن تتعرفي عليه يا نور.

ـ زفاف بنت عمي غدًا بقصر البارون.. لتأتي ومعك أبو الدهب.

كان النهـار قد قـارب على الانتهاء.. ترك أمجـد ونور الجامعة الأمريكيـة.. توجهت نور إلى الزمالك حيث تسـكن وتوجه أمجد إلى إمبابة.. إلى أبو الدهب.

* * *

كُل منطقة وليها موقف.. إلا إمبابة ليها مطار..

كانت "بوابة" العرب القادمين من شمال أفريقيا إلى صحراء مصر الغربية.. لهذا سميت بهذا الاسم "إمبابة"..

تبًا لكلماتك يا أبو الدهب.. سئمت السير في شوارع بلا ملامح.. عجزت البوابة التاريخية على استقبال سيارتي.. لا موقف بها لسيارة ولا مطار لطائرة فمتى تحدثني عن إمبابة الواقع وتترك الماضي للماضي.. هذا شارع السودان يشق البنايات كالحد الفاصل بين إمبابة والعجوزة.. بين التنظيم والعشوائية.. من أجل دكاكين بائسة زحفت على الشوارع أترك سيارتي للمجهول.. لا عليك يا صديقي فرغم كل هذا أدخل بيتك دومًا بسعادة..

أين هو بيتك هذا؟.. ألم يأتِ بعد؟.. أرهقني السير.. إنه هناك خلف أرض المطار المهجور.. هناك في حضن البنايات المجاورة.. يخرج من باطن الأرض وكأنه غرس قديم نبت بالقرب من النيل.. ثلاثة طوابق صامدة تعاند الزمن.. ارتفع الشارع فأكل نصف الطابق الأول.. نهبط لنصعد سلالم مرتبكة ومظلمة.

خرج أمجد من حديثه الشخصي على باب شقة أبو الدهب التي يسكنها هو ووالدته.. انتظر أمجد بعدما طرق الباب..

ـ أدخل يا حبيبي تعالى.

هكذا اعتاد احتفال السيدة المسنة به.. دخل وهو يسألها:

ـ أين أبو الدهب يا ماما؟

ـ بغرفته يا أمجد.. كيف هو حال والدتك؟

ـ بخير يا ست الكل.. أنتِ أخبارك إيه؟

ـ الحمد لله يا ابني..

دخل أمجد وهو يفكر في أمه المقيمة بنادي الصيد نهارًا والمنشغلة بحفلات وسهرات الصديقات مساءً.. دخل على أبو الدهب وهو يصرخ:

ـ كيف حالك يا هندسة؟

ـ أندب حظي يا ابن رجال الأعمال.

ضحك أمجد وتساءل:

ـ لماذا يا ابن إمبابة؟

ـ اتصل بأصدقائي دومًا ولا مجيب.

تحسس أمجد تليفونه المحمول وهو يقول:

ـ كنت أتحدث عنك يا صديقي.. أتيت لك قبل أن أعود للبيت.. هل هذا لا يكفي؟

ـ تتحدث عني!.. لمن!؟

ـ نور.

ـ نور التي جعلتك تتساءل عن كاسترو وكوبا.

ـ نعم.. تساءلت من أجلها.

ـ لماذا تهتم بنت أمريكا برجال عاشوا وماتوا وهم ضد أمريكا!؟

ـ هي أيضًا ضد أمريكا.

ـ لماذا؟

جلس أمجد يحكي حكاية نور ورينا وهو متأثر.. تأثر أبو الدهب هو الآخر وقال:

ـ هربت من نيويورك إلى القاهرة.. البشرية تحلم بجواز سفر أمريكي وصديقتك تبحث عن الحياة في زحام القاهرة وفي

البؤس الذي يحاوطنا.. أتراها سعيدة يا أمجد؟

ـ نعم.. تعيش في وحدة وليس لها أصدقاء غيري.. مع ذلك الضحكة لا تفارقها.

ـ كيف كسرت عقدتها ودخلت عالمها؟

ـ ألا تعلم حقًا؟.. لم أخطُ خطوة واحدة نحوها بدونك.

ـ لقد أنجزنا إذًا مهمة عظيمة تستحق الاحتفال.. أين الحشيش؟

ـ اتصل بإسلام.. أنا سأدفع له.

ـ هل تستحق نور ما فعلناه؟.. وهل لنا أن نحتفل؟

قال أمجد في ثقة:

ـ نعم تستحق.. ستشهد أنت بذلك.

ـ متشوق لرؤيتها حقًا.

ـ إذًا تراها غدًا.

ـ بهذه السرعة؟

ـ هي من طلبت رؤيتك أولًا.. أنت مدعو لحفل زفاف ابنة عمها غدًا.

ـ لن أذهب.

ـ لماذا؟

ـ أين الحشيش؟

ـ يا لك من مستغل.

تأمل أمجد الغرفة التي تقارب مساحة الحمام الملحق بغرفته.. كانت تساع كل أحلامه.. لم تبخل عليه بالراحة.. كُتب أبو الدهب المتروكة بعشوائية شاهدة على تفتح الورود بداخله.. صورة المثيرة مارلين مونرو المعلقة على الحائط تذكره بأول مرة

شـغلته نور.. هنا خطط مع أبـو الدهب كيف يخطف منها نظرة؟.. كيف تمنحه ابتسامة؟.. كيف يكون اللقاء؟.

قال أبو الدهب بعد أن هاتف إسلام:

ـ إسلام يرغب في السهر معنا.

ـ ما المانع؟

ـ أمي لا تحب أن تراه هنا.

ـ إذا ليس أمامنا إلا النيل.. في المركب الصغير.

بالقـرب من كورنيش إمبابـة انتظر أمجد وأبو الدهب إســلام حتـى لاح لهـم من بعيد.. شـاب أكمل عامه السـادس والعشـرين.. يشبه لاعبي الكرة في رشاقتهم.. متوسط القامة.. بشرته سمراء.. يتفنن في قصات شعره الناعم فيبدو وسيمًا.

عانـق أبو الدهب وأمجـد ثم بحث عن الحاج إسـماعيل صاحب المركـب حتى وجده.. رجـل بدين يرتدي جلبـاب صعيدي لا يغيره والشيشة دومًا في يده لا تفارقه.. اعتادوا تأجير المركب إذا رغبوا في السهر معًا مقابل مائة جنيه عن الليلة في الشتاء ومائتي جنيه في الصيف يسعد بهم الرجل فيترك لهم المركب ويعود لبيته وأولاده.

في المركب أخرج إسلام الحشيش وهو يقول:

ـ لكم أنا متشوق لسهرة معكم يا شباب.

قال أمجد:

ـ حقًا؟.. أحيانًا أشـعر أنك لا تفيق يا إسلام.. هل تتذكرنا في نشوة الحشيش بكل هذا الاشتياق؟

ضحك إسلام بشدة:

ـ أكون إنسان طبيعي فقط وأنا تحت تأثير الحشيش.. عندها أحن وأشتاق.

قال أبو الدهب:

ـ ما أجمل أن تصاحب تاجر حشيش وآخر يدفع له.. أهلًا بكم يا أصدقاء على متن المركب الحزين.. مركب الحاج إسماعيل.

قال إسلام وهو يفرك الحشيشة بالتبغ:

ـ أنا لست تاجر حشيش.. أنا أعمق من ذلك.

قال أبو الدهب:

ـ أحيانًا يأتي الحشيش ومعه الكآبة أيها العميق..

قاطعه أمجد:

ـ لم يحدث هذا مع إسلام.. ولكن قد يغيب الوعي.

قال إسلام:

ـ قد يحدث للأسف.. هذا يرجع إلى المزاج؟

سأله أمجد:

ـ كيف؟

ـ إذا أردت السعادة وهيأت نفسك لها ستسعد.. وإذا أردت الحزن ستحزن.. وهناك من يبحث عن الإبداع والتأمل.. الكثير من الكُتاب والشعراء والفنانين زبائن دائمين لدي.

قال أمجد:

ـ هل هذه طبيعة أبناء إمبابة؟.. العمق والفلسفة!

رد إسلام وهو يُشعل سيجارة انتهى من لفها بدقة:

ـ أنا درست اللغة العربية في آداب عين شمس لمدة عامين.. كنت متفوقًا.

ـ لماذا لم تُكمل؟

ناول إسلام السيجارة لأبو الدهب وشرع يعد أخرى.. قال لأمجد:

ـ تأتي في حياتنا لحظة تبدلنا وتغيرنا.. قد نتغير للأفضل وقد نتبدل للأسواء.

أومأ أمجد مبتسمًا مصدقًا على كلام إسلام بعدما تذكر قصة نور.. سأل إسلام مجددًا:

ـ ما الذي غيرك وبدلك أنت الآخر؟

كان إسلام يتفنن في لف السيجارة دون أن تشغله عن الحديث.. أشعل السيجارة.. ناولها لأمجد وهو يحكي:

ـ كانت ليلة رأس السنة.. جلست أمام شاشة التلفاز في محاولة للاستمتاع بآخر 30 دقيقة في العام.. اللون الأحمر هو الغالب على المطلين من الشاشة الصغيرة.. توقفت عند برنامج يُبث بشكل مباشر.. سيدة في العقد الثالث من عمرها ترتدي فستان سهرة رائع.. تجلس أمام مذيع بدين مزعج سقط شعره من رزالة صوته.. قدمها المذيع على أنها عالمة فلك وأخذت تتحدث عن توقعاتها للعام الجديد بعد أن درست حركة الكواكب والنجوم.. قالت إن هذا علم متعارف عليه عند العرب.. تقصد علم الفلك.. وإنها ليست عرافة أو منجمة.. تحدثت عن حظوظ الناس في العام الجديد من خلال أبراجهم الفلكية.. إلى أن وصلت لبرج الميزان.. برجي الفلكي.. للحقيقة أدهشني حديثها.. قالت السيدة عن مواليد برج الميزان أن هذا العام لن يمحى من ذاكرتهم فهو يحمل لهم أحداثًا فارقة وخاصة أول ثلاثة أشهر.. سيكون عام الهدايا.. عام الحب والارتباط.. عام العمل والنجاح والتفوق.. وجدت رغبة بداخلي تستحثني على تصديق عالمة الفلك.. نعم.. قدمتها لنفسي من جديد كعالمة فلك.. ما المانع من

بداية عام جديد بالتفاؤل المبني على العلم والدراسة؟..
أغلقت التلفاز بعدما حصلت على أكثر من حاجتي.. دقائق ويبدأ العام المنتظر.

تحرك القارب في النيل بلا هدف.. شكل دخان التبغ المختلط بالحشيش سحابة فوق عالم الأصدقاء الثلاثة وانفصلوا عن الدنيا وهُم تحت تأثير نشوة الحشيش والرغبة في الغياب.. لا صخب الملاهي الليلية على ضفتي النيل يشغلهم.. ولا أضواء الفنادق والأبراج تأثرهم.

قال أبو الدهب:

ـ كانت بداية عام 2011 م.. أتذكر جيدًا.

رد إسلام:

ـ نعم.. مع انتصاف الليل جاء صوت أسماء عبر الموبايل.. أرادت أن تبدأ العام الجديد ونحن معًا.. كانت تسكن على بعد خطوات من منزلي.. في الشارع الذي يسكنه أبو الدهب..

قاطعه أبو الدهب:

ـ بنت الأستاذ سعيد.. موظف النقل العام.

قال أمجد:

ـ جميل.. وماذا حدث.

قال إسلام وهو ينفث دخان سيجارته في الهواء العليل:

ـ تركت البيت قاصدًا بيت أسماء.. كانت لا تزال معي على الموبايل.. كانت في انتظاري تطل من شرفة غرفتها المطلة على الشارع.. سوف تمنحني ابتسامة وأقتل شغفها لرؤيتي.. حتى جاءت اللحظة التي سلبت روحي وتركت جسدًا لإنسان يشبهني ولكنه لا يعرفني.

صمت إسلام أمام هول الذكرى لثواني ثم أردف:

ـ كانت تقف في الشرفة مبتسمة.. اكتمل عام واكتملت معه صغيرتي.. صارت أنثى تعرف كيف تبتسم لحبيبها.. رأيت في عينيها حبًا يستطيع أن يبيد كل الكراهية من عالمنا.. فجأة تحول إلى رعب وقبل أن أستوعب تلقيت صفعة كادت أن تفقدني الوعي.. ثلاثة أمناء شرطة رقصوا فوق ضعفي بظلمهم وجبروت سلطتهم.. صرخت أسماء صرخة مكتومة وبكت.. رأيت في لمعان عيونها حجمي.. كنت صغير كنملة.. ضعيف كفرخة أمام جزار اعتاد ذبح الثيران.

قال أمجد في خجل:

ـ أسف يا صديقي.

قال إسلام وهو يفرك الحشيش بغل:

ـ لا عليك.. عندما رأيت أسماء وهي منهارة أمام ضعف حبيبها لم أتحمل.. صفعت أحدهم صفعة ففقد قدميه وسقط على الأرض.. بعدها فقدت أنا الآخر كل أطرافي وحملوني إلى قسم إمبابة.. أسبوع مر كالدهر في زنزانة مظلمة ضيقة مع بشر لم أعايشهم من قبل.. تذوقت كل وسائل الإذلال والتعذيب.

منح إسلام سيجارة أخرى لأبو الدهب.. نظر لأمجد وقال:

ـ كل هذا كان من الممكن أن يمر دون أثر.. كنت أستطيع أن أتحمل الوقوف أمام أسماء من جديد.. آخر أيامي في الزنزانة اقتاضني عسكري لغرفة مغلقة.. طرق بابها.. دخل ودخلت خلفه.. الثلاثة أمناء وأبي يستجديهم وأمي تجذب يد أمين الشرطة الذي صفعته على وجهه بعد أن صفعني.. تجذب يده لتقبلها وهي تبكي.. بكيت أمامهم بحرقة.. بكيت لبكاء أمي وهوان أبي.. لعنت الدنيا ولعنت ساكنيها..

هزمتني المحنة وخرجت من قسم الشرطة وأنا ناقم على نفسي والدنيا من خلفي.. انتقمت من نفسي ومن الجميع.. من أسماء.. من أمي وأبي.. تركت الجامعة وكل مكان يمكن أن أصادف أسماء فيه.. أهملت أمي وأبي وانقطعت عنهم ليالي عديدة.. وفي الليالي المظلمة بحثت عن نفسي وها أنا الآن إسلام الباحث عن الانتقام.. أقاسم أحد أمناء الشرطة مرتبة بعد أن أدخلت ابنه عالم المخدرات.. أرسم وجه الثاني على جسد ابنته التي تتعرى أمامي وقتما أريد.. وأحتفظ للثالث بسلاحه الميري في غرفتي.. رغبتي في الانتقام تتزايد مع كل يوم جديد.. عندما أفكر في أسماء.. عندما أرى حزن أمي وحسرة أبي.. عندما أصادف زميل دراسة بعدما تخرج وحصل على شهادة وعمل وزوجة وأولاد.

قال أبو الدهب بجمود:

ـ هذه هي الكآبة التي أقصدها.

نظر أمجد إلى أبو الدهب بمقته.. سأل إسلام:

ـ وأين أسماء الآن؟

رد إسلام بحزن:

ـ فعلت المستحيل من أجلي حتى أصابها اليأس.. تزوجها ابن خالة أبو الدهب.. أنجبت منه طفلين.

ضحك أبو الدهب وهتف:

ـ أنجبت إسلام وأمل.

قال أمجد:

ـ ما أجملها.

صرخ أبو الدهب:

ـ أين الحشيش؟

ضحك إسلام ضحكة اهتز لها المركب.. قال:

ـ بيدك أيها الغائب.

رفع أبو الدهب يديه أمام عينيه.. وجد بين أصابعه سيجارة فأشعلها وهو ينظر إلى أمجد الذي كان يتأمل النيل في صمت.. قال له:

ـ أين ذهبت يا أمجد؟

قال أمجد وهو ينظر لساعة يده:

ـ ذهبت!؟.. حقًا لا بد أن أذهب.

انتفض أمجد بعصبية.. تحرك ليغادر المركب.. عندها أمسك به إسلام وهتف أبو الدهب:

ـ نحن في وسط النيل يا ابن رجال الأعمال.

نطق أمجد بصعوبة:

ـ لعنة الله عليك وعلى رجال الأعمال وعلى النيل وعلى إسلام هو الآخر.. هذا هو الغياب الذي حدثتكم عنه.. كيف أعود إلى الدقي؟

قال إسلام:

ـ لن تعود الآن.. نأكل أولًا.. بعدها نفكر في الذهاب.

قال أبو الدهب:

ـ فلنوجه المركب صوب الشاطئ.. لكن تبقى شخص لا بد أن تنتقم منه يا إسلام.

تطلع إليه إسلام:

ـ مَن؟

_ عالمة الفلك.

ضحك أمجد وضحك إسلام وهو يقول:

_ هذا هو الإبداع الذي أقصده.

حملهم النيل إلى الشاطئ.. كان أمجد يتطلع إلى الشاطئ المقابل.. شاطئ الزمالك.

* * *

كانت ليلة نور ككل الليالي التي مرت عليها في الزمالك.. اعتادت القراءة وتصفح مواقع إلكترونية بعينها والاستماع لمكتبة الموسيقى التي تُحدث باستمرار.. دش ساخن في الشتاء ودافئ في الصيف.. صنعت من وحدتها عالمًا جميلاً.. رفضت مواقع التواصل ومع ذلك لم تشعر بالفراغ.. كانت تستأنس بالهدوء.. تُعد القهوة برفق.. تتذوق حروف الكلمات.. تستمع للموسيقى باحتراف.. لا تستجدي النوم ولا تمل من عالمها.. غيرت معالم الشقة وأفرغت محتوياتها شيئًا فشيئًا.. استبدلت الأثاث القديم بآخر بسيط وخفيف.. جردت الحوائط من الصور واللوحات العتيقة.. علقت لوحة عملاقة بالألوان الطبيعية للسيدة فيروز تنظر إليها دومًا وتتعجب ..

ـ كيف صنع الغرب حضارة عظيمة وليس لديهم فيروز!؟

نامت مع الثالثة صباحًا واستيقظت في العاشرة على صوت الموبايل الكسول.. إنها أميرة شقيقة العروسة.. ردت نور وهي شبه نائمة:

ـ صباح الخير يا أميرة.

ـ صباح الخير يا نور.. نحن في انتظارك لا تتأخري.

ـ لن أتأخر.. سألتحق بكم قريبًا.

أغلقت نور الخط ونهضت إلى الحمام وهي تُفكر كيف سترتدي فستان السهرة.. عندما ابتاعت الفستان وفي البروفة نظرت في المرآة.. تعجبت وضحكت ساخرة.. تعتقد أن الجميع سيسخر منها.

خرجت من الحمام وهي في حيرة من أمرها.. تناولت وجبة خفيفة وفنجان قهوة.. أخذت تستعد لحفل الزواج.. ارتدت الفستان واتصلت بأمجد:

ـ صباح الخير يا أمجد.

لم يحلم أمجد بصباح مثل هذا.. كان يعشق صوتها في الصباح.. رد بسعادة:

ـ صباح النور يا نور.

ـ لا تأتي اليوم حفل زفاف ابنة عمي.

ـ لماذا؟

ـ لا أريد أن يراني أحد وأنا أرتدي فستان السهرة.

ضحك أمجد ضحكة أزالت أثر نومه:

ـ سأكون أول الحاضرين.

ـ فلتأتي حتى ترى حبيبتك والجميع يسخر منها.

ـ سيسخر الجميع من نفسه عندما يروا روعتك.

ـ سأرسل لك صورة فأنا لا أثق في غيرك.. سأنتظر رأيك فلا تجاملني.

ـ لن أجاملك.

ـ إذًا راقب الواتساب.

ـ في انتظارك.

وقفت نور أمام المرآة.. التقطت صورة وأرسلتها إلى أمجد.. انتظرت رده.

كتب أمجد لنور:

ـ لكم أنا محظوظ.. من أنا حتى أكون أول من يرى هذا الجمال؟.. اعذريني لا أملك إلا عينين كباقي البشر أحاول أن أستوعب بهما كامل إبداعك.. كأني أرى هذه الألوان لأول مرة.. اتركي لشعرك الكستنائي المزدوج الجنسية

مســاحة أكبــر.. اتركيه ينســاب على شــموخ رقبتك.. لونك الــوردي هــذا يحــول كل مــا حولك إلــى جنينــة كبيرة فلا تســيئين إليه بمســاحيق الجمــال.. هذا هو الجمال.. جســدك الطويل هذا يعشــق الســهر فلا تبخلــي عليه بهذا الفســتان.. أحبكِ.

عندما قرأت نور رسالة أمجد نظرت من جديد في المرآة.. رأت صــورة مغايرة هذه المرة.. تبخر انطباعها الأول.. أعجبها الفســتان ورأت نفسها أنثى ناضجة وفسرت عشق أمجد الذي لا ينتهي.

جلست كمجنونة تفكر في رد يناسب كلمات أمجد.. قبل أن تكتب له كان قد ترك رسالة أخرى:

ـ أرى خجلك وحيرتك.. لا داعي للخجل والحيرة فالرجل دائمًا أكثر رومانســية من المرأة.. على اســتعداد أن أقضي عمري وأنــا أراقــب صمتك.. امنحينــي فقط فرصــة للتواجد بقربك الليلة.

ـ إذًا.. لا تتأخر أيها الوسيم.

ـ سأكون أول الحاضرين.

تركت نور شــقتها فــي الزمالك في الثانية ظهــرًا.. توجهت إلى منزل عمها في المهندسين لتكون برفقة العروسة.

* * *

ارتـدى أبو الدهب أفضل ملابسـه.. بدلة زرقـاء.. قميص أبيض مع رابطة عنق كحلية.. حذاء أسـود نظيف.. كل هذا على جسـد مسـتقيم ومنتشـي بفرحـة لم تصل بعـد.. وقف أمام المـرآة يروض شـعره الأسـود بهدوء.. بريـق عيونه البنيـة يتفاعل مع بريـق المرآة فينعكـس على لون بشـرته الفاتحة.. هذا المسـاء سـيرافق أمجد إلى قصر البارون..

ـ معظم أيامي معك لا تخلو من المفاجآت.. هذا عهدي بك.

هـذه الكلمـات ما نطـق أبـو الدهب عندمـا شـاهد أمجد وهو ينتظـره بسـيارة مختلفـة تليق بالسـهرة وتليـق أيضًا بلون ملابسـهم الموحـدة.. اسـتقبله أمجـد بحب.. انطلقـا معًا إلى مصـر الجديدة.. اجتازوا أسـوار القصر العملاق عبر بوابة تشـبه لوحة فنية من عصر النهضـة.. كذلك التماثيـل المصطفة على جوانـب الممرات.. يقف القصر في شموخ معبد هندوسي وكأن البارون "إدوارد إمبان" باني القصـر قد جلبه معه من الهند.. أجواء القصر تحرك الأدرينالين في الجسد وتتوتر دقات القلوب.. كل هذا جعل أبو الدهب يسأل أمجد:

ـ كيف تقام الأفراح في هذه الأجواء!؟

قال أمجد وهو يطفئ محرك السيارة:

ـ سنرى.

فـي حضـن القصر سـاحة كبيـرة أُقيـم عليها العـرس.. للقصر سلالم رخامية توزعت عليها الفرقة الموسيقية في منظر بديع.. تقدم أمجد وأبو الدهب في الوقت الذي لاحت فيه العروسة برفقة والدها الرجل المسـن من أعلى السـلالم ليسـلمها لعريسـها الذي صعد هو الآخر في رشـاقة.. التقيا في المنتصف.. كأن هذا السـلم هو عمر الفتاة.. نصفه في حضن والدها والباقي في حضن زوجها.. ترك الأب

يـد ابنته اليمنـى وخرج من المشـهد مطأطئ الـرأس.. أزاح العريس الطرحـة البيضاء عن وجه عروسـته وطبع قبلـة على جبينها.. تداخل مـع صوت الموسـيقى أصوات حيوانـات مرعبة بُهت الذي سـمعها.. ألعـاب نارية كثيفة أدهشـت كل مـن رآها إلى أن خرج من وسـط هذا العرض المرعب صوت نجمة الغناء العربي "ماجدة الرومي"..

ـ طلِّي بالأبيض طلِّي يا زهرة نيسان.. طلِّي يا حلوة وهلِّي بالوجه الريان.

كان أمجد يبحث عن نور وأبو الدهب يسجل مشهدًا قد لا يراه مرة أخرى.. يتعجب من المفارقات التي تُشكل المجتمع المصري.. طبقـة تُقيـم حفـل زفاف بتكلفـة خياليـة.. هـذه التكلفة تكفي لإقامة عشر حفلات في إمبابة.. يتساءل دون أن ينبس بكلمة:

ـ هل هذا حفل زفاف من أجل الفرح والسـرور.. أم اسـتعراض للثراء والتباهي!؟

أخرجه أمجد من شروده.. جذبه من ذراعه ومال عليه:

ـ أترى يا أبو الدهب الحسناء التي تتلألأ في الفستان الأحمر؟

بحث أبو الدهب عن صاحبة الرداء الأحمر حتى وجدها.. قال:

ـ هذه نجمة هوليود أبيجيل برسلين!

ـ إنها نور يا صديقي.

داعب أبو الدهب الهواء:

ـ صغيرة وساحرة.

تنبهـت نـور لحضـور أمجد فتقدمـت نحوه بخطى سـريعة حتى وقفت أمامه:

ـ شكرًا لحضورك.

تبسم وقدم صديقه:

ـ هذا أبو الدهب.

صوبت عيناها الرصاصية صوب أبو الدهب وهمت تصافحه:

ـ أهلًا بك يا أبو الدهب.. شكرًا لحضورك وسعيدة لرؤيتك.

ـ ازدادت الليلة جمالًا برؤيتك يا نور.

جلسوا على هامش الحفل يراقبون المشهد.. يتحدثون في بهجة.. مع انتصاف الحفل استقرت الأضواء المتقطعة بعض الشيء لتُظهر روعة المبنى والبرج الواقف بجانبه في عناد.. قام الأصدقاء بجولة حول القصر بينما الجميع ينصهر في الصخب.. لم يجدوا من يمنعهم أو يحول بينهم وبين القصر بعد أن ترك الحرس أماكنهم ليشاهدوا ويستمعوا بنجوم الغناء الشعبي الذين يحيون الحفل.

قال أمجد وهو ملتصق بجدار القصر:

ـ يسكنه الأشباح.

توترت نور:

ـ أي أشباح؟

ضحك أبو الدهب:

ـ ندخل ونرى.

صرخ أمجد:

ـ فلنبحث عن مدخل.

تمتمت نور:

ـ أخاف.

همس أمجد:

ـ أنا معكِ.

قال أبو الدهب مازحًا:

ـ من أين لك بكل هذه الشجاعة يا أمجد؟

نظر أمجد لنور وابتسم:

ـ لا أعلم ولكنها حاضرة.. لنبحث عن مدخل.

دار الأصدقاء حول القصر في حذر.. شرفات ونوافذ عملاقة يحملها تماثيل عاجية تُرهق في الظلام وتُخيف.. عثر أبو الدهب على نافذة شبه مغلقة.. تسلل للداخل وجذب أمجد.. قام أمجد بمساعدة نور برفق ولين.. كأنه يحمل أحلامه.. رغمًا عنه تحسس جسدها من فوق الرداء الناعم.. رمش في توتر وتنهد.. شعرت نور بلمسات مختلفة فنظرت إليه فرأت قطرات العرق على جبينه.. بعد أن التحقت بهم داخل القصر وقفت تنسق ملابسها.. اقتربت من أمجد في غفلة ومنحته قبلة خاطفة وابتسمت.. اقتربت منه من جديد والبسمة لا تفارقها.. منحته هذه المرة منديلاً ورقيًا.. كل هذا وأبو الدهب يتحرك تحت الإضاءة الخافتة بالقرب منهم.

ظل قصر البارون لسنوات طويلة مهجورًا بعد أن هاجر الورثة وأصبح بلا صاحب يحميه ويعمره.. حدثت به أشياء مريبة وغامضة.. يُقال إنه كان مقصد عبدة الشيطان في فترة التسعينيات.. هناك واقعة شهيرة لمجموعة من الشباب ألقت الشرطة القبض عليهم داخل القصر عام 1997م.. أثناء إقامتهم حفلة صاخبة.. غناء ورقص وطقوس شيطانية غريبة.. قد يكون هذا ما جعل الجيران يتحدثوا عن أصوات مخيفة وبرق أضواء تخرج عبر النوافذ ليلًا.. إلى أن قامت وزارة الثقافة بالتواصل مع حفيد البارون "إمبان".. منحته قطعة أرض في منطقة مصر الجديدة مقابل نقل ملكية القصر للوزارة.

انبهر الأصدقاء بالتصميم المعماري الفريد.. قال أبو الدهب:

ـ الشمس تدخل جميع غرف القصر.

ردت نور:

ـ قـرأت عنه.. يقُـال إن هذا البرج الذي فـي الجوار كان يدور دورة كاملة كل ساعة.

تعجب أمجد:

ـ على عكس المتوقع.. صغير جدًا من الداخل.

عقب أبو الدهب:

ـ اهتم البارون بالشكل الجمالي وعبقرية التصميم أكثر من المساحة.. أسرته كانت صغيرة أيضًا.

تسـحبوا علـى الأرضيـة المصنوعة من رخـام جلبه البـارون من إيطاليـا ومرمـر بلجيكـي.. اقتربـوا من قاعـة المائدة.. تحسسـت نور بأناملها الرسـوم المقلدة لرسـومات "مايكل أنجلو" و"ليوناردو دافنشـي".. تجولـوا في الغرف الأربعة التي تكـوِّن الطابق الأول مع الصالـة وقاعة الطعام.. اقتربوا من السـلم الرخامي البديع.. تبادلوا النظرات وقرروا الصعود دون تردد.. في منتصف السلم حدث ما لم يكن على بالهم.. شيء جعلهم يتسمرون في أماكنهم.. باب جانبي يصـدر صوتًـا كنقيـق الضفـادع.. جاء صـوت العرس مـع القادم.. طل رجل خمسـيني يحمـل "موبايل" كبير وسلسـلة مفاتيح ذهبية.. كان بصحبتـه فتـاة ترتدي "هوت شـورت" جينز أحمر و"تيشـرت" سوداء وخلفهما حارسـان قويان ينتظران الأوامر.. انبطح الأصدقاء خلف الدرابزين وهم يترقبون.. تحرك الرجل إلى وسـط القاعة التي تتوسـط القصر.. أشـار للحارسـين فجلبوا كنبة من إحدى الغرف وتركوها أمام مكتب صغير وانصرفا للخارج.. أخرجت الفتاة من حقيبتهـا زجاجة خمر من النـوع "فوديكا".. وضعتها على المكتب ثم أخرجت كاسـين وعلبة سـجائر "ميـرت".. كان الرجل يتصفح ملفات "الموبايل" الذي أضاء وجهه بشكل كامل فتبينه الأصدقاء

الثلاثــة القابعيــن منتصــف الســلم.. بــدا لهم شــخصية ذات منصب كبيــر.. الشــارب الكــث والســيجار والبدلــة الفخمة التي تســتر الجسد البدين والطري تدلل على ذلك.. ناهيك عن الحرس.. انفرط "كــرش" الرجــل فجأه بعدما فك حزام وســطه فظهــر لهم وكأنه يحمل جنين.. كانت الفتاة بجانبه تعبث بخصلة من شعرها الأسود المموج وهي تدخن سيجارة وتنفس دخانها في الفراغ فيتموج مع موج شــعرها في الضــوء الخافت.. رائحتها أيضًا مثيــرة وتملأ المكان.. لمعان جسدها يظهر جليًا.. قالت للرجل بنفاد صبر:

ـ وبعدين يا باشا!

نطق الرجل بلا مبالاة:

ـ انتظري دقائق.

أخــرج من جيبه كبســولة ابتلعها أعقبها بــكأس.. نظرت إليه في ضجر:

ـ أمامــك فتاة تحرك الجبال ويصطف لها الرجال وهم حاملين أسلحتهم المنتصبة والمتأهبة.. كل هذا يقف أمامك.

تصنع الهدوء:

ـ طبيعة عملي ومنصبي الكبير وذهني المشــغول دائمًا.. كل هذا يجعلني أستعين بالمنشطات.

تســلل أمجــد زاحفًــا علــى الســلم إلــى أن وصــل لأحــد مصادر الضــوء.. أعــد كاميرة الموبايــل على وضع الفيديــو.. اختلط ضوء فلاش الكاميرة بضوء المكان فلم يتنبه أحد.

قالت الفتاة ساخرة:

ـ أعتقد أن كل أصحاب المناصب الحساسة يمارسون الجنس بالمنشطات.

اهتم الرجل:

ـ ما السب لاعتقادك؟

سحبت الفتاة الرجل من رابطة عنقه حتى أصبح أمام وجهها :

ـ لا تستطيعون أن تنفصلوا عن وضعكم المرموق.. يلازمكم التكبـر وعظمـة السـلطة.. إصرارك على هـذا القصر يدلل علـى ذلك.. الجنـس عكس كل هذا.. عليـك أن تتذلل أمام غرائـزك.. تتصـرف كالعاهـرات.. تتعـرى كالمومسـات.. تنحنـي كخادمـك أمـام جسـدي.. عندها سـتنتصب كما ينتصب حرسك أمامك.

أمسكها من معصمها بقوة:

ـ تزوجـت بنت الحسـب والنسـب كمـا يقولون.. لم تتعـرَ يومًا أمامي وأنا بالطبع كذلك.. أعاشرها معاشرة بيضاء شاحبة.. لا متعـة ولا إثـارة.. يومًـا كنت منتشـي مـن تأثيـر الخمور.. تجرأت وتحسسـت مؤخرتها.. انتفضت وابتعدت.. أتذكر أن هذه الليلة نمنا دون أن نكمل ما بدأناه.. في الصباح لم تنظر فـي وجهـي.. كان علي أن أبدي الخجـل أمامها.. أين كانت نصائحك هذه من ربع قرن.. منذ زواجي؟

أشعلت سيجارة:

ـ كنت أحبو وأتعلم الوقوف على قدمين.. كان عمري شـهور أيها العجوز.

ترك معصمها وصرخ:

ـ ليتنـي كنت رجلاً بسـيطًا.. أرى متسـولين تجاوزوا السـتين يقفـون في إشـارات المرور أكثـر من 12 سـاعة.. أنا أمتلك الأمـوال والسـلطة والحـرس والخـدم ولا أسـتطيع أن أقـف

علـى أقدامي لدقائق.. على اقتنــاع أنه لو اقترب منكِ أحدهم سيوجعك مرات ومرات دون منشطات.

سخرت من جديد :

ـ من يصدق أن سـمير باشـا الدمياطي ناقم علـى حاله وينظر للمتسولين في حسد!؟

ضحك الرجل في أسى:

ـ أنتِ يا سمر أول من يصدق.

كان أمجد مستمر في تسجيله وأبو الدهب بجانب نور ينصتان فـي دهشـة لحوار سـمير الدمياطي وسـمر.. إلى أن اقتـرب الرجل أكثر من الفتاة وبدأ يتحسسـها ويلتصق بها.. شعرت نور بالغثيان.. توتر أبو الدهب فزحف نحو أمجد وهمس:

ـ ماذا تفعل!؟

ـ أسجل.

ـ هل تعرف هذا الرجل؟

ـ لا الرجل ولا الفتاة.

ـ لماذا تهتم إذًا؟

ـ لا أعلم.

قال أبو الدهب في حدة:

ـ لا بد أن نبحث عن مخرج الآن.

فشل الرجل مع الفتاة فصرخت وهي ترتدي ملابسها :

ـ هذه الليلة هي الأخيرة لي معك.. لا تهتم بهذا الأمر مجددًا..

انفلتـت ضحكـة مـن أمجد لما سـمع وتوتر الموبايـل في يده.. رآهـم الرجل والفتاة وفُضح أمرهم.. هتـف الرجل للحرس فهرولوا

نحـوه.. عندها خرج الأصدقاء الثلاثة من نفس الباب الجانبي الذي دخل منه الحراس مهرولين نحو سيدهم.

أمجد لم يكف عن الضحك بعد.. أبو الدهب يشعر بالتوتر ونور تتنفـس بعصبية.. قصدوا العرس من جديد للتخفي وسـط الزحام.. دخلوا قلب الحفل.. جلسـوا وما هي إلا دقائق حتى كان الدمياطي علـى بعـد خطوات منهـم.. لهيب الشـرر الخارج من وجهـه أفزعهم وأربكهم.. تصنع الرجل الثبات.. أشـعل سـيجارًا ونظر للحارسـين من خلفه ثم نظر للأصدقاء من جديد.. ترك السيجار لحدة أسنانه وأشار لنور بيد ثم أمسك السيجار بالأخرى.. خلصه من بين أسنانه وألقاه على الأرض.. داسـه بقدمه اليسـرى وهو مـا زال يصوب غله نحو نور.. وقف الأصدقاء.. تقدم أمجد ووقف أمام نور كي يخفيها عن أعين الدمياطي.. ابتسـم الدمياطي ابتسـامة ساخرة وهزَّ رأسه يتوعـده.. تقـدم أبـو الدهـب ووقف أمـام أمجد حتـى اصطفوا في خط مسـتقيم أمام الدمياطـي.. جذب الرجـل الموبايل من يد أحد حراسه.. أدرك أبو الدهب أنه ينوي التقاط صورة لهم فأشار لأمجد ونـور دون أن ينطـق.. خرجـوا بارتباك مـن الحفل في اتجاه سـيارة أمجد التي كانت على بُعد خطوات منهم.. خطف أبو الدهب مفتاح السـيارة.. تولى القيادة واندفعت السـيارة بعصبية نحو بوابة القصر ومنها لشارع العروبة.. كل هذا حدث في دقائق..

كان أبو الدهب يقود بعصبية وهذا ما جعل أمجد يسأله:

ـ ما الدافع لكل هذا يا أبو الدهب؟

ـ كل هـذا من الممكـن أن ينتهي ويزول لـو عجز الرجل في معرفة هويتنا.

خرجت نور عن صمتها:

ـ وماذا لو عرف من نكون؟

حاول أمجد طمأنة نور:

ـ لن يحدث شيء.. لا تقلل من شأننا يا أبو الدهب.

قال أبو الدهب وهو قابض على عجلة القيادة:

ـ عليك أن تدرك طبيعة السلطة في مصر يا أمجد.. يُفرط مالكها في استخدامها فلا حسيب ولا رقيب.. المال وحده لا يكفي بدون السلطة يا ابن رجال الأعمال.. وحده والدك والقليل معه لديهم المال ولم يبحثوا عن سلطة..

صمت أبو الدهب لثوانٍ ثم أكمل:

ـ لقد رأينا الليلة رجلًا يستخدم أملاك الدولة من أجل شهوته التي لم تتخلى عن عظمة صاحبها.

ضحك أمجد:

ـ ويا ليته استطاع..

ثم نظر لنور محاولًا مداعبتها لتخرج عن قلقها وصمتها.. أردف:

ـ لا تكوني صورة على قدرة المصري قياسًا على هذا الرجل.

ضحكت بمرح:

ـ كانت أمامه فتاة تحرك الجبال..

قاطعها:

ـ ويصطف أمامها الرجال في لهفة.

قال أبو الدهب:

ـ السيارة «الماتريكس» الحمراء تلازمنا منذ خروجنا من بوابة القصر.

كانوا قد ولجوا طريق صلاح سالم.. نظر أمجد ونور للسيارة التي تتبعهم.. صرخت نور:

ـ إنها الفتاة التي تحرك الجبال.

تحقق أبو الدهب من خلال المرآة وقال:

ـ هي فعلاً.. ماذا تريد؟

قال أمجد:

ـ تأنى يا أبو الدهب حتى تقترب.

صارت سيارة سمر بمحاذاتهم.. أشارت لأبو الدهب بالتوقف جانب الطريق.. كان من الصعب إظهار الخوف من فتاة أمام الفتاة الأخرى "نور".. توقف أبو الدهب بالقرب من إستاد القاهرة.. ترجل بمفرده من السيارة نحو سمر التي توقفت هي الأخرى خلفهم.. اقترب منها:

ـ ماذا تريدي؟

قالت دون أن تترك سيارتها:

ـ أريد مساعدتكم.. أنتم الآن في ورطة لا تدركوا مداها.

ـ من هذا الرجل؟

قالت وهي تخرج بالسيارة إلى الطريق من جديد:

ـ لن نستطيع الحديث هنا.. ابحثوا عن مكان آمن وأنا خلفكم.. لا تخافوا فأنا أضعف منكم.

عاد أبو الدهب للسيارة.. جلس على مقعد القيادة من جديد.. قال وهو يتحرك خلف الفتاة:

ـ تعرض علينا المساعدة.

دُهش أمجد:

ـ من أخبرها أننا نحتاج مساعدة.

قالت نور:

هل نثق بها؟

رد أبو الدهب:

ـ أرى أن نستمع إليها.. ليست مخيفة.. تتحرك بعيدًا عن رجلها.

قال أمجد:

ـ قد تكون على اتصال معه.

تخطى أبو الدهب الفتاة بعد أن أشار لها حتى تتبعهم:

ـ أظنها صادقة.

تأمل أمجد الفتاة التي تسير خلفهم من جديد:

ـ إلى أين سنتجه يا أبو الدهب؟

ـ هاتف إسلام ليعد لنا المركب.. سنقتل هذه الليلة بمساعدة تلك الفتاة.

ـ ستعرف كل شيء عنا..

قاطعه أبو الدهب:

ـ وسنعرف كل شيء عنها وعن رجلها.

نظر أمجد لنور:

ـ هل سترافقنا نور؟

رد أبو الدهب:

ـ هذا متوقف على رغبتها.

تعجلت نور:

ـ لن أترككم.

اندفعوا نحو كوبري أكتوبر ومن خلفهم سمر.

* * *

كان إسلام في الانتظار.. أعد القارب لسهرة جديدة.. سهرة تقليدية.. حشيش وحديث غير معد حتى اقتراب الفجر.. كل هذا تغير وتبدل عندما شاهد أمجد يقترب برفقة فتاة وخلفه أبو الدهب برفقة أخرى.. وقف يتمتم وهو يستقبلهم:

ـ ما هذا الانحراف المفاجئ!؟.. من أين لكم بتلك الساحرتين؟

حياه أمجد وأبو الدهب بعد أن استقرا في المركب.. أشار لأبو الدهب حتى اقترب منه:

ـ سأترككم وأذهب..

ابتسم أبو الدهب بعد أن أدرك مقصده:

ـ أنت واهم.. لا تدرك ما نحن فيه.. حرك المركب يا إسلام.

جلس أمجد ونور وأبو الدهب في مواجهة سمر:

ـ أنا سمر.. يرتدي البعض ثوب الحكيم عندما تتعرى أمامه فتاة ويحكموا عليها.. وكأن الجسد بطاقة هوية.. كنت عارية أمامكم الليلة فهل علمتم من أنا؟

لم تجد غير الصمت فأردفت:

ـ الرجل الذي كان برفقتي اليوم لن يرحمكم..

صرخ أمجد في وجهها:

ـ لن يستطيع أن يفعل شيء.. أما الفيديو الذي سجلته فسوف احتفظ به حتى يفكر رجلك مائة مرة قبل أن يمس أيًا منا..

قاطعته سمر:

ـ تعقل يا..

ـ أمجد.. أسمي أمجد.

ـ تعقل يا أمجد.. أنت تحمل فيديو يهين دولة.. لا تنام الليلة قبل

أن تحذفه.

سألها أبو الدهب:

ـ من هذا الرجل؟

ـ سمير الدمياطي.. معرفتي برجال السلطة وثيقة منذ فترة.. تعلمت أنهم نوعان.. النوع الأول يتصدر الشاشات وصفحات الجرائد والمجالات وهم الأضعف.. أما النوع الثاني ومنهم الدمياطي لا يعلم عنهم إلا القليل.. هم الأقوى.. هم السلطة الحقيقية ومن يتصدرون المشهد تابعين لهم.. قد يكون الدمياطي رتبة كبيرة.. قد يكون محرك جهة ما في الدولة.. لا أعلم..

ـ ماذا تعرفين عنه إذًا؟

أشعلت سيجارة:

ـ ما هو اسمك؟

ـ أنا أبو الدهب.. هذه نور.. وهذا صديقنا إسلام.

ـ يا أبو الدهب هذا الرجل يستطيع أن يسبقك إلى غرفة نومك الليلة.

سخرت نور:

ـ أنتِ هنا من أجل إرهابنا.. يقلقكِ ويقلق رجلك الفيديو الذي معنا.. عودي إليه وأخبريه أننا لا نهتم.. أنتِ أيضًا لا تقلقي.

تحسست سمر طبق كبير بجانبها كان قد أعده إسلام.. به حشيش وتبغ وسجائر ملفوفة.. نظرت إلي إسلام وكأنه تستأذنه.. التقطت سيجارة من الطبق وأشعلتها.. قالت:

ـ ما أجملك يا نور.. كان من الممكن أن أعود إلى منزلي وأنا مطمئنة.. عندما رأيتكم خارج القصر وجدت نفسي أندفع خلفكم.. أود أن أبقى معكم ولكن لو أردتم أن أذهب

الآن سـأذهب.. أنـا أقرب لـكم من هذا الرجـل.. أنا مدفوعة ومرغمـة على التعري أمامه.. أنـا ضعيفة ومغلوبة على أمري.. لا أريد أن يسيطر عليكم مثلما سيطر عليّ.

لمعت عين سـمر فشـعرت نور بالخجل.. ولأول مرة نطق إسـلام بعد أن سحرته سمر:

ـ أعجبك الحشيش؟

نظرت سـمر إليه.. اسـتغرقت في تأمل ملامحـه وزيه المختلف الذي يُظهر جسده القوي.

توتر إسلام أمام نظراتها.. قال:

ـ يمكنك أن تُشعلي سيجارة أخرى.

ابتسمت له.. سألها أبو الدهب:

ـ ماذا يجب علينا أن نفعل يا سمر؟

قالت وهي تُشير لأمجد:

ـ كانـت ضحكـة صديقـك أمـام ضعـف الدمياطـي إهانـة كبيـرة لمكانتة.. أقترح عليكم أن تُظهروا الندم والأسـف أمامه عندما يعثر عليكم.. حتمًا سـيعثر عليكم.. عندها لا تنزعجوا من عجرفته وربما احتكاره لكم..

انزعج أبو الدهب:

ـ لنغلق هذا الموضوع الآن وما يريده الله سيكون.. أنتِ يا نور أمريكية.. كل سـلطة ستتوقف أمام جواز سفرك.. أما أنت يـا أمجد فلتحذف هذا الفيديو.. أنا سـأعود إلى بيتي وكأن شيئًا لم يكن.

التقط أبو الدهب سيجارة من الطبق ثم تأمل الجميلة سمر.. سألها:

ـ وأنتِ ما هي حكايتك يا سمر؟

اقترب إسلام منهم حتى شكلوا دائرة بجلستهم.. قالت سمر:

ـ لا أريـد أن أُعكر صفوكم.. يكفي ما حدث.. إنها حكاية مؤلمة وبائسة.

قالت نور:

ـ نريد أن نسمع لكِ.. إلا إذا كان ذلك سيؤلمك.

منحها إسلام سيجارة أخرى.. قال:

ـ البـؤس يحاوطنا في كل الأحوال.. قبـل أن تحكي وبعد أن تحكي.

ابتسمت له من جديد.. أشعل لها السيجارة.. قالت:

ـ كانـت طفولتي سـعيدة.. أب مهنـدس وأم صيدلانية.. أنجبا طفلهـم الأول بعـد سـنين مـن زواجهـم.. أرهقتهـم الأمنيـات وأتعبهـم التردد على الأطباء.. وبعـد أن ملأهم اليأس منحهم القـدر طفـلاً فـكان "هانـي".. بعد عـام جئت أنـا وليتني ما جئـت.. تجدد شـبابهم.. دخلـوا ربيع الدنيا مـن جديد.. انطفأ هذا الشـباب بعد سـنوات لـم تكن قليلة ولـم تكن كثيرة بمـا يكفـي.. في العـام الأول لي فـي المرحلـة الثانوية مات أبـي.. وشـاخت أمـي وهـي علـى مشـارف السـتين.. كان هانـي يعوضنـي غياب أبـي وضعف أمـي.. إلـى أن تخرج من كليـة الحقـوق وتقدم للـزواج من فتاة أحبهـا.. رفض والدها وضاقت عليه مصر بعد أن عجز عن العثور على عمل.. هاجر وتركنـي قبـل عام مـن تخرجـي.. تركنـي لأم انقطعت عن الدنيـا وتفرغت لأمراضها وذكرياتها مع ألبوم صور وكُتب قديمة سـجلت على الهامش من صفحاتها مذكرات بتواريخ منسية.. أحتفظ بهذه الكُتب إلى الآن لكني أخجل أمامها.. أكتفي بملامسـتها فقط.. ماتت أمي قبل أن أتخرج بشـهر..

درسـت اقتصاد في جامعة القاهرة.. كنت على علاقة بشاب اسـمه "محمـود".. تخرجنـا معًا.. آخر مـرة التقيتـه كنا في يـوم ممطر.. بعـد أن هاتفني عند انتصاف الليـل.. لم ينَم قبل أن أعـده بلقاء في الصباح.. جاء الصباح سـريعًا والسـماء لم تكـف عن البكـاء.. لم أكـن أدري أنها تبكـي.. ذهبت معه إلى شركة عملاقة على أطراف القاهرة.. قال على أبوابها :

ـ هذه شـركة والدي سـأقدمك له.. سـنعمل هنا معًـا.. نتزوج ونسكن بمدينة سكنية قريبة من هنا.

هـذا اليـوم بدلني وغيَّرنـي.. قابلني الرجل بجفاء.. لم يبتسـم ولو لمرة واحدة أمامي.. بعدها أجبر محمود على السفر خارج مصر.. صرت وحيدة.. تخيلت أن الأمر انتهى إلى أن هاتفني والد محمود وطلـب مقابلتي.. ذهبت إليه فمنحني من وقته دقائق.. خرجت من عنده مشـروخة.. قال إن ابنه ينتظره مسـتقبل كبير.. طلب مني أن أبتعـد عنه.. منحني كارت شـخصي لرجل قال إنه شـخصية مرموقة ذات سـلطة وسـيمنحني وظيفة في أحد أجهـزة الدولة.. كنت في حاجة إلى وظيفة بعد أن أهملني أخي.. هاتفت صاحب الـكارت فجـاء صـوت خشـن مخيـف.. ارتبكت وأنـا أذكره بوالـد محمود ووعده لي.. بعد سـاعات التقيت صاحب الكارت والصوت في نادي شـهير.. تبخر حلم الوظيفة شـيئًا فشـيئًا أمام إرهـاب الرجل.. لم تكـن وظيفة بل كان تهديدًا ووعيدًا حتى لا أقترب من محمود.. بكيت أمامه.. صرخت في وجهه:

ـ كل هـذا الوعيد واللعنـات لفتاة يتيمة.. وحيـدة بلا أهل.. لو كنت تدرك مدى ضعفي ما أضعت وقتك في كل هذا.

اهتز الرجل أمام هواني وبؤسـي.. قال:

ـ سأمنحك وظيفة.

لم أرضَ بجبروته ولم أقبل شفقته.. مثل له هذا إهانة كبيرة.. بعد ثلاثة أيام كنت مكبلة بملابس ممزقة تحت أقدامه.. قام رجلان باختطافي على مرآى ومسمع من الجميع.. قاومت دون جدوى.. دخلت في إغماءة طويلة خلصني منها الرجل بوخز حذائه وهو يقول:

ـ الكارت الذي معك يحمل أرقام فقط دون اسم.. ألم تلاحظي ذلك؟

لم أقوَ على الرد.. جلس الرجل على مقربة مني.. عاود حديثه:

ـ لم يكن هناك داعي لذكر اسمي.. مهما كتبت فالأبجدية عاجزة عن تعريف سمير الدمياطي.

ارتجف الأصدقاء دون إسلام عندما سمعوا اسم الدمياطي.. أشعلت سمر سيجارة وأردفت في ألم:

ـ رغم مرور ثلاث سنوات على هذه اللحظة إلا أنها تتجدد كل يوم.. اغتصبني هذه الليلة أكثر من مرة.. توحش الرجل.. رأيت الموت بعدما شاهدته ملطخ بدمائي.. كنت أغيب عن الوعي وأعود تحت وطأة ضرباته على جسدي.. أيام عديدة مرت وأنا سجينة في غرفة خارج الدنيا.. كنت أنتظر الموت كل يوم وعندما تأخر حاولت الانتحار وفشلت..

صمتت وصمت الجميع معها خجلًا .. عادت لتُكمل:

ـ من يشعر بينكم بالألم؟.. هذا ليس ألمًا.. الألم هو ما شعرت به بعدما تركني الدمياطي.. كنت أغتسل بالدموع.. أشرب المُر وآكل ثريد الظلم.. ثلاث سنوات مرت ولا أعلم كيف ولماذا يثور فيل على نملة!؟

قاطعها إسلام هاتفًا:

ـ لو أردت انتقمت لكِ.. أنا أُجيد الانتقام.

داعبت قوته بلمسة جريئة.. مشطت شعره بأطراف أناملها.. قالت:

ـ دعك مني الآن.. الأهم ألا يقترب من أصدقائك.. أنا دخلت عالم قذر وانتهى أمري.

بدا إسلام حزينًا مهمومًا.. هب واقفًا وتحرك نحو مقدمة القارب.. تساءلت سمر:

ـ ماذا به؟

رد أمجد:

ـ لقد مر بتجربة تشبه تجربتك.. سلبوه أحلامه وحب حياته.. يعيش الآن من أجل الانتقام.. الانتقام فقط.

نظرت إليه سمر في أسى:

ـ أراك مسكينًا مثلي أيها الحزين.

تحركت نحوه.. وقفت خلفه:

ـ أعلم مدى ألمك وبؤسك.. لكنك أفضل مني حالًا.

قال إسلام وهو يهرب في سواد الليل:

ـ كيف؟

ـ على الأقل لم تُغتصب.

التفت لها فوجدها تحرك حاجبيها وشفتيها بديناميكية عجيبة.. تعجب من سحرها ولم ينبس.. قالت بمرح:

ـ أأغتصبك أحدهم؟

انفجر ضاحكًا.. جذبته من زراعه وعادا لمجالسة الأصدقاء من جديد.. أرادت نور أن تخرج الجميع من حالة الحزن.. قالت:

ـ ما رأيكم.. نلعب لعبة تعلمتها في أمريكا؟

ردت سمر في مرح:

ـ فكرة رائعة.

تحركت نور حتى أصبح أمجد وأبو الدهب على يمناها.. وسمر وإسلام على يسراها .. أشارت لهم:

ـ إذًا أنتم فريقين.. أمجد مع أبو الدهب وإسلام مع سمر.. على كل فريق أن يختار اسم له.

تشاور الفريقين.. بعد ثوانٍ قال أبو الدهب:

ـ نحن فريق الأصدقاء.

وقالت سمر:

ـ ونحن فريق الأشقياء.

قالت نور:

ـ الأصدقاء في مواجهة الأشقياء.. محور اللعبة هو أنا.. سأطرح السؤال ولكل فريق الفرصة في الإجابة على نفس السؤال.. الإجابة التي تعجبني سأمنح نقطة لصاحبها.. السؤال الأول:

ـ لو أن هذا المركب يجوب بحور الدنيا.. على أي أرض تفضلوا أن نرسوا؟

فريق الأصدقاء:

ـ أرض الحب.

فريق الأشقياء:

ـ أرض الانتقام.

ـ نقطة لصالح الأصدقاء.. السؤال الثاني:

ـ أين يوجد الحب؟

فريق الأصدقاء:

ـ بين العقل والجنون.

فريق الأشقياء:

ـ بين الشهد والدموع.

ـ نقطة لصالح الأشقياء.. السؤال الثالث:

ـ متى يجب أن نموت؟

فريق الأصدقاء:

ـ عند منتهى العشق.

فريق الأشقياء:

ـ عند منتهى العبث.

ـ نقطة لصالح الأشقياء.. السؤال الرابع:

ـ ما هو لون الحياة؟

الأصدقاء:

ـ أخضر بلون الزرع.

الأشقياء:

ـ أحمر بلون الحرب.

ـ نقطة للأصدقاء.. السؤال الخامس:

ـ هل نعود إلى الشاطئ؟

فريق الأصدقاء:

ـ ليس الآن.

فريق الأشقياء:

ـ لن نعود.

نقطة.

* * *

جلس سـمير الدمياطي في مكتبه بعد ليلـة لم يدخل فيها إلى عالم الأحلام.. مكتب فسيح ملحق به حمام واستراحة للاسترخاء والنوم.. أمسـك تليفونه المحمول بيد متوترة وأجرى مكالمة مليئة بالعصبيـة.. ترجـل وتمشـى على السـجاد التركي الفاخـر.. تأمل صورته العملاقة المثبتة على الجدار أعلى المكتب.. كانت هناك صـورة أُخـرى مكانهـا.. بعد زلزال يناير سـقطت فوضـع صورته. كان على الثورة إسقاط الجدار نفسه. نظر إلى ساعة يده.. كانت السادسـة صباحًـا فظـل مترقبًـا لدقائق إلى أن سـمع صوت أقدام تقترب.. سارع بفتح باب المكتب وهو يهتف:

ـ ادخل يا عصام.

دخل عصام صاحب الجسد القوي وأغلق الباب من خلفه.. أشار له الدمياطي بالجلوس وهو يسأله:

ـ ماذا فعلت؟

لوح عصام بـ "فلاشة" أخرجها من جيبه:

ـ أحضرت تسجيلات كاميرات القصر.

قـام وأحضـر "لاب تـوب" مـن إحـدى زوايـا المكتـب وأدخـل بـه "الفلاشـة".. بعد لحظـات كانت مقاطـع الفيديو تُعـرض أمام الدمياطي الذي جلس يراقب.. صرخ:

ـ هنا.. توقف يا عصام.. هؤلاء الثلاثة أريدهم في أسرع وقت.

رد عصام في ثقة:

ـ لا تُشغل بالك يا معالي الباشا.. في خلال ساعات..

قاطعه الدمياطي:

ـ السـاعة الآن تقترب من السابعة يا عصام.. أنا لم أنم ولن أنام

قبل أن أرى هؤلاء الكلاب تحت أقدامي.

قال عصام وهو يستعد للخروج:

ـ الدولة وأجهزتها لا يرضيها انزعاج معالي سمير باشا الدمياطي.. لن تغيب الشمس إلا وهم كما أردت.

خرج بعد أن أعاد "الفلاشة" إلى جيبه تاركًا الدمياطي يذوب في غله وجبروت سلطته.

في الثالثة عصرًا.. عاد عصام حاملًا للدمياطي جديدًا.. دخل عليه مبتسمًا.. قال:

ـ أحضرناهم الثلاثة بعد أن تعرفنا على هوايتهم.. تم مراقبة تليفون وتحركات كلٍّ منهم..

الأول هو محمد عبد الله أبو الدهب.. يدرس في هندسة القاهرة.. يسكن في "إمبابة" وأحضرناه من بيته..

الثاني هو أمجد محمد السعيد.. والده مستورد قطع غيار سيارات معروف.. يسكن في "الدقي".. انتظرناه حتى ابتعد عن بيته وحصلنا عليه..

أما الفتاة فهي نور على.. تحمل الجنسية الأمريكية.. تسكن بمفردها في "الزمالك".. أسرتها مستقرة بأمريكا.. لم نجد صعوبة في إحضارها إلى هنا.

قال الدمياطي في لهفة:

ـ أين هم؟

ـ في الغرفة المجاورة.. معصوبي الأعين ومقيدي الأيدي.

الغرفة المجاورة لمكتب الدمياطي لها نفس مساحة المكتب.. ظلت خالية من الأثاث إلا من طاولة خشبية وضعت في المنتصف مع أربعة كراسي حديدية موزعة على الأركان.. شغل الأصدقاء

ثلاثة كراسي وظل الرابع ينتظر.. كانوا في حالة ذهول من السلطة التي جلبتهم.. تذكروا كلمات سمر..

همس أبو الدهب لأمجد :

ـ أمامنا فرصة للنجاة يا أمجد.

قال أمجد :

ـ ما يشغلني الآن هو أن تخرج نور من هنا.

ردت نور:

ـ لن أخرج إلا معكم.

قال أبو الدهب قاصدًا نور:

ـ لا بد أن تخرجي الآن.. أما نحن فلا مانع من أن نقضي أيامًا أو أسابيع.. حتما سيتركنا هذا المجنون.

قال أمجد :

ـ لن أترك هذا القذر لو فكر في التعرض لكِ.. سأقتل أو أُقتل إذا مسَّكِ بسوء.. لو أن هذا يخيفك فلتسعي للخروج من هنا في أسرع وقت.

همس أبو الدهب لأمجد من جديد :

ـ أين موبايلك يا أمجد :

ـ سلبوني كل شيء.

توتر أبو الدهب:

ـ هل حذفت الفيديو؟

ـ حذفته أمس عندما عدت إلى البيت.

تنهد أبو الدهب ثم قال:

ـ قد يكون هذا الرجل جالسًا بيننا الآن.. وقد يكون ينصت

إلينا من غرفة أخرى.. في كل الأحول هذه الورطة ستكون لنـا.. أنا وأمجد فقط.. أمـا أنتِ يا نور بمجرد أن يأتي أخبريه بجنسيتك فقط.. ثم أصمتي وأنا سأكمل.

قالت نور وهي تبكي:

ـ كيف أترككم وأذهب.. ألست منكم؟.. تظهرون الخوف عليَّ وتطلبون في المقابل أن أتخلى عنكم.. اللعنة على الجنسية؟.. من يقول إننا نحمل جنسيات مختلفة وأنتم أقرب لي من أهلي.. إذا كانت هذه الوريقات التي تسمى جواز سفر ستفصلني عنكم فسوف أتخلى عنها إلى الأبد..

ثم قالت بصوت باكٍ أثَّر في أمجد:

ـ لن أخرج إلا معكم يا أمجد.. يا حبيبي.. لم أنطقها من قبل.. قلقك عليّ أزاح أحجار قلبي وحطمها..

قاطعها أمجد:

ـ لا أريد أن ينتهي بي الأمر كما انتهى بإسلام.. إن جاءت الفرصة لخروجك ستخرجين.. أنا وأبو الدهب سنلتحق بكِ.

قال أبو الدهب:

ـ انتظروا فقد نخرج جميعًا.. هذا يتطلب اعتذارًا وإظهار الندم كما قالت سمر.. تجاوز قليلًا يا أمجد من أجل نور ومن أجلنا.

رد أمجد بصعوبة:

ـ لا تقلق يا صديقي.. واثق أنه سيعوض ضعفه الذي رأيناه في البارون.. سيتجبر ويتعالى علو الآلهة.. في كل الأحول سنحاول معه.. متى سيأتي؟

دخل الدمياطي وخلفه عصام.. صرخ فيهم صرخة أرعبتهم:

ـ مرحبًا بكم في دولة سمير الدمياطي.

ارتبك الأصدقاء أمام غرور الرجل فأردف:

ـ ليلة أمس حملت معها أقداركم.. ما أسوأ أن تصادف سمير الدمياطي دون رغبته..

تشجَّع أبو الدهب وقاطعه:

ـ حقًا كانت مصادفة.. أبهرنا القصر فدخلناه.. لو كنا نعلم عن قدومك ما فعلنا.

قال الدمياطي:

ـ لكنكم فعلتم.. أنا لا أرى النوايا.. كل ما رأيته أنكم سمحتم لأنفسكم أن تتواجدوا في مكان ليس لكم ورأيتم وسجلتم ما يغضبني..

تشجع أمجد هذه المرة ونطق:

ـ فلاش الموبايل لم يكن للتسجيل بل كان للرؤية.. أنا صاحب فكرة الدخول.. أنا من كان يحمل الموبايل.. أترك أصدقائي وليكن الأمر بيني وبينك.

ضحك الدمياطي ساخرًا:

ـ أنت ابن مستورد قطع غيار السيارات؟

قال أمجد بلا أدنى خوف:

ـ نعم.. وهذا صديقي أبو الدهب.. نور أمريكية.. أعتقد أنك لا تحب أن تشركها في هذا الخلاف.

ضحك الدمياطي من جديد:

ـ تخيل أنني أخاف من صديقك ابن «إمبابة» أكثر من صديقتك الأمريكية.

قال أبو الدهب:

ـ كيف؟

ـ سأخبرك كيف.. قد أراك أقل من أن تكون خصمًا لرجل مثلي.. أنت أمامي كالعدم.. تعجبني المعارك الكبرى.. وقد أُشفق عليك في لحظة ضعف..

صمت الرجل لحظات ثم نطق من جديد:

ـ إن كان لكم أن تخافوا فلتخافوا على هذه الشقراء.. أعتقد أن ضعف وفشل الأمس سيتبدل أمام جسدها الرائع.. لم أتذوق أمريكية من قبل..

قاطعة أمجد:

ـ انتظر يا باشا فهي ليست لك.. من يقترب منها سيندم.. ضعفك وفشلك هذا سيدوم.. أنت خارج الخدمة كما قالت فتاتك ليلة أمس..

تدخل أبو الدهب بعد أن أقلقه حدة أمجد:

ـ لك منا تعهد واعتذار ورجاء.. أما التعهد فهو أن ننسى ما حدث أمس وكأنه لم يكن.. الاعتذار فهو من أجل المصادفة التي تحملنا عواقبها.. أما الرجاء هو من أجل كرم سعادتك في الصفح عنا.

قال الدمياطي:

ـ يا لك من سياسي ومفاوض بارع.. لكن ما تصنعه السياسة تقتله الحروب.. صديقك أنهى كل شيء.

نطقت نور موجهة حديثها للدمياطي:

ـ هل عشقت من قبل؟

ضحك الرجل وقال في أسى:

ـ مثلنا لا يتورط في مثل هذه الأمور أيتها الشقراء.

أردفت نور:

ـ ولكنك قد تكون سمعت عن العشق والعشاق.. لا تخشى الفارس فوق جواده شاهرًا سيفه ولا يهيبك السلطان مالك الأرض ومن عليها.. لكن احترس من عاشق.. لا تهين من يحب وتنتظر التفاوض والسياسة والسلام.

جلس الرجل لأول مرة على الكرسي الرابع.. قال:

ـ لم أصادف مثلكم من قبل.. هذا يشجعني ويُشعل بداخلي أشياء ستغضبكم.

قال أبو الدهب:

ـ أترك نور وليكن الأمر.. نتحمل أنا وأمجد الحرائق التي بداخلك.

قال الرجل:

ـ أنت كالعدم ولو أردت تركتك الآن..

قاطعه أبو الدهب:

ـ قالت لك نور لا تستهين بالعاشق وأنا أقول لك لا تستهين بالصديق.

ضحك الرجل:

ـ إذًا أنت الآخر أشعلت شيئًا جديدًا بداخلي سيغضبك..

تحدث الرجل لعصام الواقف كالجماد:

ـ يا عصام لدينا الآن عاشق وصديق وشقراء.. لك العاشق والصديق ولتترك لي صاحبة النهدين الصغرين فأنا لم أتذوق هذه الفاكهة.. على قناعة أنها ستجدد شبابي.

اشتعل أمجد:

ـ بل ستدخلك القبر إن اقتربت منها.. تعقل يا رجل فإنها

أمريكية وأنا العاشق الذي حذرتك منه.

قال أبو الدهب في حدة:

ـ إذ لم يخيفك جواز سفرها ولا انتقام عاشقها.. فلتخاف من صديق يجيد السياسة كما شهدت ويجيد أشياء أخرى لا تعلمها.. لك منا كما أخبرتك.. تعهد واعتذار..

قاطعه الدمياطي:

ـ لي ما أريد وليس لكم شيء أيها الصديق الوفي..

ثم صرخ في عصام من جديد:

ـ ماذا تنتظر يا عصام.. هذه الليلة ستكون الأولى للشباب معك فلتكرمهم.. اترك لي هذه الفتاة لأجعل منها أنثى وتجعل مني شابًا أتمناه..

ثم توجه لأمجد:

ـ أتريد أن تسجل بموبايلك أيها العاشق؟

قال أمجد بصعوبة:

ـ لا تقترب منها أرجوك.

قال أبو الدهب:

ـ تذكر أنها ليست مصرية.. ستفكر ألف مرة قبل أن تقترب منها.. قارن سطوتك بسطوة أمريكا.. لا تندفع وتخطئ خطأ يدفع بك إلى الهلاك.

اهتز الدمياطي.. ظهر ذلك في حديثه عندما تحدث لأبو الدهب:

ـ عندما تتحدث تتجدد نظرتي لك.. هل تعمل بالسياسة؟

قال أبو الدهب:

ـ لا سياسة في وجودكم.. أنتم تقتلون كل شيء.

قال الدمياطي:

ـ عندما تُقتل السياسة ماذا يحدث؟

قال أبو الدهب:

ـ تحضر الثورة.

صُعق الرجل:

ـ ثورة!!.. أي ثورة؟!.. الثورة تُحدث فوضى وعندها تزداد سطوتنا؟

ضحك أبو الدهب:

ـ يحدث هذا.. نعم يحدث ولكن أنت أمام شعب تعلم كيف يغضب ولو كُنت مكانك لتعلمت الدرس.. أنت تسير في نفس الطريق.

ثار الرجل:

ـ ما الطريق؟.. أنتم شعب لا تؤمنون أن الله أراد لنا السلطة وأراد لكم ما أنتم فيه.. لا تستحقون أكثر من ذلك.. انظروا حولكم.. الدول تنهار وتتقسم وأنتم تنظرون إلينا في حسد..

تعجب أبو الدهب:

ـ ما الحسد؟.. نحن نتعهد ونعتذر ونترجي.. أنت تريد أن تنتقم وتغتصب ما ليس لك.. اتركنا ولن ترانا مجددًا.

صمت الدمياطي وأخذ يفرك لحيته ثم قال:

ـ أنت بارع في الحديث.. هل شاركت في تظاهرات يناير؟

قال أبو الدهب بشجاعة:

ـ نعم.. كنت بين الصفوف الأولى.. أعتقد الآن الأمر تبدل وأصبحت أنا أول اهتماماتك.. قبل الشقراء وقبل العاشق.

ضحك الدمياطي:

ـ أنـت ذكـي.. تعـرف كيف تفـاوض وتصنع معركـة وتنهي أخـرى.. هل تعلـم أن أكثر من يقدرون شـباب الثورة هم من قامت ضدهم الثورة.. أنتم فعلتم ما لم يفعله غيركم.. وبقدر إعجابنـا بكـم يكون انتقامنـا منكم إلا مـن تعقل وانضم إلينـا.. أنتـم كنز لو ملكتم سـلطة ووبـاء إن وقفتم في وجه سلطة.. لك أن تعلم أن كل ما يشغلنا الآن هم أنتم.

ـ كيف؟

ـ معظـم مجهودنا يبذل عليكـم.. نعمل على تصفيتكم معنويًا وقتـل ثورتكـم بداخلكـم.. نحاول أن نضم ضعـاف الأنفس منكـم إلينا.. من يتشـبث بمبدئـه له ما يناسـبه.. منكم من يُسجن ومنكم من يهاجر ومنكم من يشاغب إلى إشعار آخر.

صمـت الدمياطي.. أزاح فجـأة العصبة التي تحجـب الرؤية عن عين أبو الدهب:

ـ مـاذا لو عرضت عليك العمـل معي مقابل أن أترك أصدقائك في سلام؟

اتضح المكان شيئًا فشيئًا أمام أبو الدهب.. بعد لحظات أجاب:

ـ هل أنت جاد في عرضك؟

قال الرجل بعد أن عاد إلى مجلسه:

ـ لو قبلت فأنت أنقذت الفتاة.. لن أقترب منها.. هذا لا يغني عن قضاء بعض الأيام معي لتعرفوا من هو سمير الدمياطي.. هل قبلت؟

ـ نعم أقبل.

* * *

وقـف إسـلام حزينًا قلقًـا على أصدقائـه.. لأول مـرة يهاتف أبو الذهب ولا يجد ردًا ولأول مرة يغيب صوت أمجد المرح.. اسـتوعب ما حدث للأصدقاء ليلة أمس..

ـ صدقت الفتاة.

تمتم بهذه الكلمات وهو ينتظر قدوم سـمر بعد أن لجأ لها بعد شعوره بالقلق على أصدقائه.. حصل على رقم هاتفها قبل أن تذهب ليلـة أمس على أمل التواصل وإيجاد فرصة للقاء آخر جاء سـريعًا.. قلقـه على أصدقائه جعله ينشـغل عـن إعجابه الشـديد بها عندما اقتربت بسـيارتها الحمراء.. توتر وارتبك بعض الشيء ولكنه عاند وصمد أمام سحرها.. تقدم إليها فأشارت له فركب بجانبها..

قالت وهي منشغلة بالطريق:

ـ ما الأمر؟

ـ اختفى أبو الذهب وأمجد وربما نور أيضًا.

لم تهتز:

ـ أين تفضل أن نجلس لنتحدث؟

قال في ضيق:

ـ نعبـر الجانـب الآخـر للنيـل «الزمالـك».. هنـاك الكثير من المقاهي.

ـ منذ متى وأنت صديق أبو الذهب وأمجد؟

استفزه السؤال غير المتوقع.. لم يُظهر استفزازه وقال:

ـ أبو الذهب يسـكن في منطقتـي.. تصادقنا منذ أكثر من 7 سنوات.. عرفت أمجد عن طريقه وصرنا أصدقاء.

ـ لماذا لم تكن معهم ليلة أمس؟

ـ صدقتنا تبـدأ وتنتهي عند النيل.. أبو الدهب طالب في كلية الهندسة.. أمجد طالب في الجامعة الأمريكية.

ـ وأنت؟

ـ أنـا أرى هويتي فـي أعين الناس.. ينظرون إلـى نظرة الخائف مـن فتوة وبعضهم ينظر إلـى نظرة احتكار لتاجر مخدرات.. في كل الأحوال يبتعدون عني إلا من أراد شيئًا.

ـ وأنت كيف تنظر لنفسك؟

صرخ فيها :

ـ أنا بخير.. أصدقائي هم من في ورطة.

صمتـت ولـم تنطق إلـى أن هبطا كوبـري 15 مايو نحـو الجزيرة وقصدا أحد المقاهي.. سألها إسلام هذه المرة :

ـ من هذا الرجل؟

ـ جاوبت على هذا السؤال ليلة أمس.. سمير الدمياطي.

ـ أخبريني عنه؟

ـ ماذا تريد؟

ـ عنوانه.. كيف أصل إليه؟

ـ لماذا؟

ـ لـن أجلس عنـد النيل أبكي بكاء النسـاء حتى يعـودوا.. لا أعلم ماذا سيفعل بهم هذا المجنون؟

قالت ساخرة:

ـ يبـدو أنك تؤمـن بنظرة الخائفيـن منك.. أنت لسـت فتوة ولو كنت حقًا فقد انتهى عصر الفتوات.

قال وهو ينظر بعيدًا عنها :

ـ لا أنشغل بنظرات أحد ولو انشغلت بنظرات الجميع فلن أنشغل بنظرة فتاة ساقطة.

كان وقع كلامه عليها مرهق ومع ذلك تجلدت وتحملت.. أشعلت سيجارة وهي تبتسم ثم قالت:

ـ ماذا تريد يا إسلام؟

ـ أخبريني كيف أصل إلى هذا الرجل؟

ردت في عناد:

ـ لن أخبرك.

قال في ثقة:

ـ هل رأيتِ من قبل قطعة ثلج صمدت تحت شمس الصيف.. هكذا أنتِ الآن.. لن أتركك قبل أن تخبريني..

قاطعته:

ـ هناك شيء يمنعني.

ـ ما هو؟

ـ خوفي عليك.

ـ بل عليكِ أن تخافي مني.

قالت هامسة:

ـ لم تفارقني منذ ليلة أمس.. كنت حاضر معي قبل نومي وبعد نومي.. في حضنك فقط سأذوب كقطعة الثلج.

اهتز وارتبك:

ـ أخبريني يا سمر.. أمتلك سلاحًا وأعرف طريق الانتقام.

ـ بهذه الطريقة ستؤذي أصدقاءك.

صرخ:

ـ ما العمل في رأيك؟

ـ ننتظر.. لن يطول هذا الأمر وسترى أصدقاءك.. لو كانت نور معهم فلن يقترب منها فهي أمريكية.. إذا حدث شيء لهم سأفكر معك كيف تنتقم.. أعدك.

صمت وكأنه فقد القدرة على الكلام فسألته:

ـ هي تحب كما تصادق؟

ـ في الماضي.

ـ والآن؟

ـ الآن!.. الآن أنا بقلب جاف وصلب كالصخر.

ـ ما رأيك في سهرة في النيل.. في المركب؟

ـ هل أعجبتك سهرة أمس؟

ـ أكثر مما تتخيل.

ـ أخجل أن أهبط المركب دون أبو الدهب وأمجد.. لم أفعلها من قبل.

ـ أفعلها مرة من أجلي.

خرجا معًا نحو كوبري **15** مايو من جديد وعلى كورنيش "إمبابة" انتظرت سمر إسلام حتى صرف الحاج إسماعيل صاحب المركب.. تركت سيارتها وهبطت إلى الشاطئ.. في المركب كان إسلام يشعر بالغربة.. يهرب من نظرات سمر الجريئة.. يحاول أن يجد مهربًا من فتاة تفتش في جسده عن شيء يجهله.. طال صمتهما إلى أن سألته:

ـ كيف تراني؟

لم يجِب.. كررت السؤال:

ـ كيف تراني؟

ـ لـم أرَ جمال مثـل هذا.. جريئة بشــكل يخجلنــي.. تفاصيلك الصغيــرة تتــرك أثرًا كبيــرًا.. لو كان لدي قلب لسـيطرتي عليه.

ـ حدثني عن حبك الضائع.

ـ تسـألني عـن حلم تـوارى ودُفـن.. الأمر يتطلب نفـض التراب المتراكم..

صمت يشعل سيجارة ثم أكمل:

ـ ترهقني أسئلتك.. هل تتعمدي ذلك؟

خطفت السيجارة من بين أصابعه وهي تبتسم ابتسامة مثيرة:

ـ الليلـة سـأرهقك كما أرهقتني فـي المقهى.. أنا لسـت فتاة ساقطة أيها الحقير.

تذكر جريمته فقال:

ـ ألا تغفري؟

ابتسمت:

ـ سيذوب أحدنا الليلة كقطعة الثلج.. من يبقى يغفر للآخر.

أعجبه التحدي.. قال:

ـ سأصمد.. لا أحب أن أنهار أمام فتاة تحمل من الرقة والنعومة ما يكفي مدينة من النساء.

ـ وأنـا سـأصمد للنهايـة أو أنهار كجبـل في أحضانـك.. هيا حدثني عن حبك الضائع.

قال:

ـ «أسماء» أمر بالقرب من بيتها لأشتم راحتها.. لا أعرف كيف ترانــي الآن.. أخجل من التفكير فـي هذا الأمر.. تركت لي فــي آخر رسـائلها جملة وحيـدة «أنا وطنك أيها الغريب».. لم

أعود إلى الآن وتخليت عنها.. تزوجت شابًا من أجمل شباب «إمبابة».. رغم ذلك قالوا إنها كانت تبكي في حفل زفافها.

صمت فتحققت من:

ـ هذا يؤلمني أيها المسكين.. ألم تبكِ؟

ـ ليس الآن.. لن أنهار بهذه السرعة.. أنتِ أمام شاب تسكع في الشوارع أيامًا وليالي يغسلها بدمع عينه حتى جف وتبلد.. وأنتِ ماذا عن محمود الذي أخبرتنا بالأمس عنه؟

اقتربت منه حتى التصقت به:

ـ أتكأ عليك حتى لا أختل وأنا أستعيد أيام أقسمت ألا أتذكرها.. «محمود» كان ضعيف بدرجة لم أتخيلها.. قلت له يومًا لا تتخلى عني فأغضبه كلامي.. كان ضعيف أمامي وكان هذا يقلقني.. من يريد أن يقترب من فتاة لا بد أن يكون معه من الأسلحة ما يجعله أن يُشعل حرب من أجلها.. تخلى عني قبل بداية المعركة وعندما بدأت كنت أنا كل الأسرى وكل الغنائم.. كانت إهانات والده صعبة ولكني تحملتها وجاءت طعنات الدمياطي لتقتل الأسيرة وتغتصبها في ليالي كان لها أن تكون ليالي حب وغرام بيني وبين "محمود".. ليس هناك أحقر من أن تقتل حبك بجبنك وضعفك.. هكذا قتلني الحب.

ضمها إسلام برفق:

ـ أنا الآخر لا أعلم طبيعة هروبي أمام محاولات «أسماء».. هل كانت قوة أم ضعفًا.. بعد أن تزوجت ندمت وكنت أنتقم من نفسي شر انتقام.. ومع الوقت تعلمت كيف أقتل هذه الهواجس واتضحت لي حقيقتي.. أعتقد أنني دفعت بها إلى بر الأمان بعيدًا عن دنيا الانتقام وبعيدًا عن أمراضي التي لا

تنتهي.. ولكن أين أنا؟.. تطاردني الذكريات.. كانت تقول دائمًا أنا والدك إن غاب .. أنا أخوك سندك.. أنا دنيتك إذا ضاقت بك الدنيا..

ـ كيف تنتقم يا إسلام؟

ـ أشعل بيوت من ظلمني كلما شعرت بالبرد.. افترس بنت أحدهم عندما أشعر بالحرمان.. أدخلت ابن الآخر عالم الإدمان عندما شعرت بالضياع.. ولأني خائف دائمًا حصلت على سلاح الثالث.

ـ بحكم خبرتك.. كيف لي أن أنتقم؟

ـ لا أعلم.. ولكن الانتقام أسهل من الخنوع والرضا بالذل.. هذا يتطلب منك استحضار الغضب الذي بداخل وتحويلة لقوة.. ستسعدين كثيرًا إن فجأتي مغتصبك بجسد من نار على غير العادة.. ازرعي جسدك الناعم شوكًا.. لا تجعليه يستمتع بكِ.. مثلك لا بد أن يثور.

صمت فضمته بعد شعورها بالبرد:

ـ أنا ضعيفة يا إسلام.. فتاة تقف بمفردها في وجه هذه السلطة يعتبر جنونًا وانتحارًا.

ـ أين أخوكِ؟

ـ أخي هرب من جنون هذا البلد ولا أريد أن أشركه في هذا الأمر.. ما رأيك في هروب مثل هذا؟

ابتسم:

ـ لم أفكر في هذا الأمر من قبل.. أريد أن أهرب فيكي ومنكي ومعكِ.

ـ هل حركت بداخلك شيئًا؟

ـ تحسسي نبضات قلبي؟

ـ ما الأمر؟

ـ لا أعلم.

ـ أنـا أعلـم.. أنا جزء منك.. مظلومة مثلـك.. لكنك أفضل مني حالًا.

ـ كيف؟

ـ لم يغتصبك أحد.

انفجر ضاحكًا:

ـ من أين لك بخفة الظل أيتها الضحية؟

ـ تركت لي الأيام هامشًا ساخرًا.. ضاحكًا وباكيًا.

اعتدلت حتى أصبحت في مواجهته ثم أردفت:

ـ أترى.. هذه ضحكتي .. دقق النظر.. وهذه دموعي.

بلل يده بدمع عينيها.. سألها في أسى:

ـ أهذا انهيار؟

ـ منهارة أنا من البداية فهل تغفر لي؟

ـ ليتني أبكي.. لم أبكي منذ زمن بعيد.. هذا انهيار أكبر من انهيارك فهل تغفري لي؟

ـ بشرط أن تعلمني كيف أكف عن البكاء فقد سئمت النوم غرقًا.

ـ أعلمك بشـرط أن تعلميني كيف أبكي فقد أشـقاني النوم فوق رمال الصحراء الملتهبة.

* * *

بعـد الاتفـاق الذي تـم بين سـمير الدمياطي وأبـو الدهب.. أمر الرجـل بنقـل نور إلـى غرفة وأبـو الدهـب وأمجد.. شـعروا ببعض الراحة ولم يشـغلهم أمـر ضيافة الدمياطي فلو صـدق فلن يتخطى الأمر بضعة أيام..

سـارا أبوالدهب وأمجد بعد فك قيودهمـا ولكنهما ظلا تحت عتمـة الغمائـم بعد تجريد أبـو الدهب منها لدقائـق.. قادهما ثلاث رجـال إلى غرفة ضيقـة لها رائحة عطنه نفـاذة.. تركوهما بعد أن أزالوا الغمائم عنهما وأغلقوا الباب خلفهم.. اكتشـفا بعد لحظات أن هناك من يشاركهما الغرفة.. شخص منزوي في الركن ومنثني على نفسه.. يبدو إنه لم يشعر بالقادمين..

همس أمجد لأبو الدهب:

ـ من هذا؟

أومأ أبو الدهب برأسـه مندهشًـا.. اقترب مـن الغريب في حذر هاتفًا:

ـ السلام عليكم.

لـم يجد صـدى.. اقترب أكثر وتحسـس جسـد الغريـب ففزع الغريب وكأنه مسه شبح.. انزعج أبو الدهب أيضًا:

ـ لا تخف.. من أنت؟

اقترب أمجد هو الآخر يتأمل الغريب.. جسد هزيل ووجه يغطيه الشعر فلا ملامح تبدو ولا لون يلمع.. تحدث للغريب:

ـ من أنت؟

انـزوى الغريب أكثر وكأنه يريد أن يختـرق الجدار ويتحامى فيه.. أدرك أبو الدهب خوفه:

ـ لا تخف.. نريد أن نساعدك.. من أنت؟

قال أمجد:

ـ أنه ضحيــة من ضحايا الدمياطي.. يريد أن يرهبنا به وكأنه يقول هذا مصير من يغضبني.

جلس أبو الدهب بجانب الغريب:

ـ كل هذا ظلم.. مسكين هذا الشاب.. يبدو خارج الدنيا.

جلس أمجد:

ـ كيف ستعمل معه يا صديقي؟

رد أبو الدهب في ضيق:

ـ لا أعلـم ولا أسـتطيع التفكيـر الآن.. عندمـا نخـرج من هنا سيهون كل شيء.

قال أمجد في تحدٍ:

ـ لن أتركه إن أغضب نور.

ـ لا تقلق.. كل هذا سـينتهي على خير.. لكن من هذا الشـاب ولماذا لا ينطق؟

هب أمجد واقفًا:

ـ انظر يا أبو الدهب.. تعريف هذا الغريب مكتوب على الجدار.

قام أبو الدهب يتأمل الكلمات المتوترة المكتوبة على الجدار:

ـ يبـدو أن هذا الشـاب كان يدرك ما هو مقبـل عليه وأراد أن يدون شـيئًا ظن أنه سـيزول من عقله.. لقد ذاق من العذاب ما جعله يتآكل من الداخل.. مسكين.

قال أمجد:

ـ اسمه هاني.

قال أبو الدهب:

ـ وهذا صليب إنه قبطي.

رد أمجد:

ـ هذه شجرة عائلته وهؤلاء أولاده.. مصطفى وسمر.. إنه مسلم.

ـ هذه الغرفة لا تفرق بين المسلم والقبطي.

كان الغريب يشاهد أمجد وأبو الدهب في دهشة.. بدأ يطمئن لهم لكنه لم ينطق.. اكتفي بإشارة إلى الجدار المقابل وهو يئن.

تنبه الصديقان للإشارة وتحولا نحو الجدار المقابل.. كانت رسومات وكلمات متفرقة ليس بينها ترابط.. بعد دقائق من التدقيق قال أبو الدهب:

ـ هذا تاريخ .. مايو 2013 م.. يبدو إنه اليوم الذي دخل فيه هذا الغريب هنا لأول مرة.

قال أمجد:

ـ وهذا الرسم لفتاة.

اقترب أبو الدهب من الشاب مرة أخرى وهو يقول برفق:

ـ من أنت يا غريب؟.. نحن مثلك.. لا تخف.

هتف أمجد:

ـ كيف صار هكذا يا أبو الدهب؟

رد أبو الدهب:

ـ لا أعرف سببًا لكل هذا الجبروت.. ماذا فعلت يا غريب؟.. أكانت صدفة مثل صدفتنا أم كان ثباتًا على مبدأ تؤمن به؟..

همس أمجد للغريب:

ـ هل تذكر مصطفى وسمر؟

تلون الغريب وانتصبت قامته بعض الشيء ولمعت عيونه الحزينة وحاول النطق دون جدوى.. قال أبو الدهب:

ـ رفقًا به يا أمجد.

عاد أمجد يتبين الجدار وبعد ثوانٍ أشار لأبو الدهب فاقترب:

ـ انظر يا أبو الدهب تحت رسم الفتاة اسم سمر من جديد.. في شجرة العائلة على الجدار المقابل اسم سمر بجانب اسم مصطفى فتخيلناها بنته ولكنها هنا فتاة شابة.. تبدو..

قاطعه أبو الدهب في أسى:

ـ إنه هاني شقيق سمر.

صُعق أمجد:

ـ نعم.. اكتمل المشهد الآن.

اقترب من الغريب مرة أخرى:

ـ أنت هاني شقيق سمر؟

هزَّ هاني برأسه والدموع تنهمر من جفونه الذابلة فضمه أمجد بشفقة:

ـ هون عليك يا أخي.

قال أبو الدهب بصوت باكٍ:

ـ الآن صرنا نعلم كيف صار هكذا.. ترقبه ظالمه في المطار وعندما عاد من غربته أحضره إلى هنا.. أكثر من ثلاث سنوات وهو يتآكل في هذه الغرفة.

صرخ أمجد:

ـ ما كل هذا الظلم؟

تحشرج أبو الدهب وهو يستند على الجدار:

ـ أب وأم عاشا يتمنيان الإنجاب.. لو عادا للحياة دقائق وكان لهم أن يندما فلن يجدا غير الإنجاب ليندما عليه.. سيدركان لماذا تأخر.

قال أمجد:

ـ الخراب سيصيب هذا البلد لسنوات وسنوات.. ستلاحقنا اللعنات.

قال أبو الدهب:

ـ ننتظر قادم الأيام المرير.

تحسس أبو الدهب ملابسه وأخرج علبة سجائر.. أشعل سيجارة ومنح أمجد واحدة واقترب من هاني.. أشعل له سيجارة.. فخطفها هاني بلهفة وبعد ثوانٍ خلصها أبو الدهب من يده بعد أن كادت تحرق يده.. سأله أمجد:

ـ هل أنت مدخن؟

لم يجِب فمنحه أبو الدهب سيجارة أخرى.. قال وهو يلوح بعلبة السجائر:

ـ لك كل السجائر لو رحبت بنا.. نريد أن نسمع صوتك.. نطمئن عليك.

تمتم هاني بصوت بعيد وغير مفهوم.. اقترب أبو الدهب وأمجد أكثر وهتفوا في صوت واحد:

ـ ماذا؟

نطق هاني بصعوبة:

ـ كيف هو الكلام؟.. لم أتحدث منذ زمن بعيد.

قال أمجد:

ـ هذا اختبار من الله يا هاني.

قال هاني وهو يحرق التبغ بغل:

_ اللّه.. مـن هو؟.. أيـن هو؟.. أنا لا أرى غيركم؟... لماذا لم يأتِ معكم؟

قال أبو الدهب:

_ لست ملحدًا.. ندرك ما أنت فيه..

قاطعه هاني:

_ ما أنا فيه!!.. ما هو؟

قال أمجد:

_ لقد عزلوك عن الدنيا.

رد هاني:

_ أي دنيا!!.. أنا الآن جسد خاوٍ.. أذكر أنه كان لي أسرة ومع مرور الأيام صرت أفقد الأشياء والأسماء والمعاني ومن بقايا الطعام دونت ما كنت أخشى أن أفقده..

صمت صمتًا موجعًا ثم عاود حديثه:

_ بعـد أن دونـت كل هـذا.. فقـدت القـدرة علـى القـراءة أو تجاهلته عن عمد.. كنت أرى الحروف على الجدار أشـباح.. اسـتجديت الموت فاسـتعصى.. احتاج من يجيب سؤالي ومن بعدها سأموت بأي شكل من الأشكال..

قاطعه أمجد:

_ أي سؤال؟

_ لمـاذا أنا هنـا؟.. ماذا جنيت لـكل هذا العقـاب؟.. تركوني للأشباح..

قال أبو الدهب:

ـ اصمد ولن يضيع حقك.. اصمد حتى تثور على من ظلمك.

قال هاني بمرارة:

ـ لي زوجة تركتها خارج مصر.. لي أولاد "مصطفى وسمر".. ولي أخت هي سمر.. اتصلت بي ذات يوم وكانت تبكي.. عندما سألتها عن سبب بكائها لم تجِب وادّعت أنها بخير.. كنت أعلم أنها تعاني من ظلمًا ما.. أنا أَعرف أختي جيدًا.. لا تبكي إلا أن شعرت بظلم.. قالت إنها تبكي لوحدتها.. قالت إنها تشتاق لرؤيتي.. أخبرتها أنني أنجبت طفلة سميتها "سمر" وأنها تبتسم مثلك وتأكل مثلك وتحن وتشتاق لأخيها كما تشتاقي لأخيكِ.. لم تفرح ولم تكف عن البكاء.. شعرت بالقلق عليها فعزمت العودة لمصر.. قُلت لنفسي لن أترك أختي لوحدتها.. سأقنعها بالسفر معي لتبقى بجانبي.. حاولت الاتصال بها فكان هاتفها دائمًا مغلقًا، وهذا ما جعلني أعجل بالعودة إلى مصر.. في المطار كانت أبواب جهنم تختصني دونًا عن الوافدين.. لا أعلم لماذا.. منذ هذا اليوم وأنا هنا..

أشعل سيجارة جديدة منحها له أبو الدهب وأردف:

ـ من أنتم؟.. وما هي علاقتكم بأختي؟..

انهمرت دموعه فاجئة وسألهم:

ـ كيف هي الآن؟

ربت أمجد على كتفه برفق وقال:

ـ أطمئن يا هاني.. سمر بخير.. أنا أمجد وهذا صديقي أبو الدهب.. سنحاول أن نخرجك من هنا..

قاطعه هاني هاتفًا:

ـ أخرج من هنا!.. كيف هي الدنيا بالخارج؟.. نسيت كل شيء

وتعـودت الحياة فـي هذا القبـر.. لو خرجت من هنا سـأكون عبئًا على كل من يعرفني..

توقف يجفف دموعه ثم أردف:

ـ ولكن أولادي وأختي وزوجتي.. كيف يحيون بدوني؟.. لماذا كانت تبكي سـمر؟.. هـل بينكم من يعـرف لماذا كانت تبكي؟

نظـر أمجـد لأبو الدهب ولا يدري كيف يجيـب إلى أن بادر أبو الدهب قائلًا:

ـ يا هاني أختك تعرضت لظلم أبشـع من ظلمك.. هذا قدركم ولا بـد أن تسـاعدنا لنخرجـك مـن هنـا حتى تحميهـا وتعود لأولادك وزوجتك.

قال هاني:

ـ من ظلمها؟

رد أبو الدهب:

ـ من سجنك.

سأل هاني:

ـ لماذا؟.. ماذا فعلنا له؟

قال أمجد:

ـ لا شيء.

وقال أبو الدهب:

ـ الظلم يطول الجميع يا هاني.. نحن أيضًا تعرضنا لظلم.

حاول هاني الوقوف وهو يقول:

ـ مـن هـذا الظالـم.. أخرجونـي مـن هنا وأنا سـأنتقم لنفسـي ولأختي ولكم.

جذبه أبو الدهب وهمس:

ـ لا عليك الآن.. نحن سنخرجك من هنا بعد أن نخرج.. أعدك بذلك ولكن هذا يتطلب ثباتك وصمودك لأيام أخرى..

قاطعه هاني:

ـ هل تدري ماذا تفعل بي الآن؟..

أنت تعطيني الأمل.. أخرجتني من عزلتي التي اعتدت عليها.. لا تقتلني من جديد.

رد أبو الدهب في ثقة:

ـ أعدك يا صديقي.

كان أمجد يتعجب من ثقة أبو الدهب.. تشكك في قدرة صديقه ولكنه لم ينطق وحاول أن ينتشل هاني من ضعفه وهوانه فقال:

ـ أين كنت خارج مصر؟

أجاب هاني:

ـ كان خروجي من مصر قبل الثورة بشهور.. كان هروبًا من واقع مرير.. في البداية قصدت دولة الإمارات وهناك تعرفت على زوجتي.. كندية تزور الإمارات.. شابة في مقتبل العمر.. فاتنة وأحبتني فتزوجتها وسافرنا إلى كندا وحصلت على الجنسية بعد عام وأنجبنا طفلين مزدوجي الجنسية.. وجدت في الغربة وطني الذي حلمت به.. كان بداخلي شيء يدفعني للعودة لمصر ولو لزيارة قصيرة وشيء آخر يمنعني.. إلى أن قررت العودة لأيام من أجل أختي وكنت أظنها أيام ولكنها طالت..

قال له أبو الدهب يطمئنه:

ـ سيعوضك الله خيرًا.. لا تفقد الثقة بالله.. الله موجود في كل زمان ومكان.. يمهل ولا يهمل.. أنت شاب مؤمن وهذا

يظهـر في اسـم ابنـك «مصطفى».. في بـلاد الغربـة لم تنسَ هويتك حتى ولو توهمت ذلك.

كان وقـع كلام أبو الدهب على هاني مريحًا ومطمئنًا، وهذا ما جعله يسأل من جديد:

ـ هل سمر يخير الآن؟

رد عليه أمجد:

ـ جميلة وسعيدة ولكنها تحتاجك فلا تخذلها وأصمد قليلًا.

قال هاني وهو يبتسم لأول مرة:

ـ سأصمد من أجل أسرتي الصغيرة.. أختي وزوجتي وأطفالي.. سـأقضي أيامـي هنا أدعـو الله أن يخرجني من هـذا القبر.. قد يكون هذا على أيديكم وإن لم يكن سـيكون على يد آخـرون بإذن الله.. في كل الأحوال أنا مدين لكم بالكثير يا شـباب.. أنتم رسـالة لي من السماء.. حملتم حياة جديدة لي هذا المسـاء.. سأذكركم دائمًا.. لي عندكم أمنية أخيرة.. لا تخبروا سمر عني الآن.. لن تتحمل.. أعلم عنها ما لا تعلمون.

رد أبو الدهب وأمجد في صوت واحد:

ـ أطمئن.

* * *

جو نيويورك بالنسـبة لرجل عاش طفولته وشبابه بمصر هو جو غير صحي بالمرة.. مدينة نيويورك صيفًا شديدة الحرارة مع ارتفاع حاد في درجة الرطوبة ، مما يجعل الأمر مزعجًا.. كلما تقدم على حسـين عبد القادر في العمر أصابه هاجس الموت فاجئة أثر أزمة قلبية.. هـذا الهاجس جعل الرجل يحول منزلـه لجهاز «هيجرميتر» كبير يراقب نسبة الرطوبة باستمرار بجانب أجهزة تكييف تُحدث كل عـام وإغـلاق النوافذ بشـكل محكم مع الملابـس القطنية الخالصة التي لا تفارق جسده وتناول أكثر من 10 أكواب عصير بشـكل يومـي.. هذا في الصيـف أما في الشـتاء فنيويورك تتحول لثلاجة بحجم مدينة..

يتحـرك المهندس علي في شـقته بخطوات هادئـة.. بيت يمزج بين الحضارة الشرقية والغربية ، حيث اهتم هو بالجانب الشرقي وتكفلت زوجته بالجانب الغربي.. عند الغروب اعتاد الوقوف في الشرفة العالية ليطل على جسر «بروكلين» المعلق.. عندما جاء لأمريكا منذ سنين كان مهنـدس مدنـي صغير هاجر يبحث عن أحـلام راودته كثيرًا.. في أول أيامه في أمريكا نصحه صديق مصري:

ـ في أمريكا من أجل أن تكون رجل عصري ومقبول اجتماعيًا يجـب أن تقول دائمًا كلمة غـزل للمرأة.. تغزل في جمالها أو في أناقة ردائها أو تسريحة شعرها الفريدة.

لـم يخبره صديقة أن هـذه الكلمات من باب النفاق الاجتماعي أو من باب المجاملة.. لم يعلمه كيف ومتى يتفوه بهذه الكلمات؟.. عندمـا صادف "جوليـا" زوجته للمرة الأولى في إحدى الشـركات التي ترتبط بعمله تغزل فيها بإفراط.. تغزل بلكنة شرقية أدركتها وكان وقع كلامه عليها شيئًا مختلفًا عن كل ما تسمع.. يومها لم

ينتهِ الأمر كما تخيل بل امتد لأيام أخرى طالت.. تزوجها بشـروط وقبلته بشروطه ولم يتصادموا إلا قليلًا..

وقـف المهندس علي في الشـرفة يتأمل حركة السـيارات على جسـر بروكليـن ويعيد ماضيه ويتحسـر علـى العمـر الضائع في الغربـة وعندما يتملك منه الحـزن يفكر في زوجته المخلصة وفي مكانته المرموقة ويتأمل شرفة شقته التي تعانق السحاب ويصرخ لمجهول يعبر الجسر المعلق وكأنه يريد أن يقول له:

ـ ما الغربة وسط كل هذا الثراء.. ما الغربة مع أسرة مترابطة كأسرتي.. ما الغربة وأنا أقف بين السحاب وأحلق كالطير.

يصمت ويتحسس وجنتيه المبللة بماء عينيه فيقول لنفسه:

ـ ولكنـي أشـتاق لكورنيـش النيل سـاعة العصـاري.. صوت الأذان المنبعـث مـن الجوامـع.. عشـوائية القاهـرة وارتبـاك السـيارات في الشـوارع.. دعوات المحتاجين للمارة.. اشتقت يا قاهرة.. والله اشتقت ولنا لقاء قريب.

ترك الشـرفة على عجل وتسـلل إلى الداخل وأعـاد غلق النافذة بإحـكام.. بحـث عن جوليـا وجلس بجانبها يحتمي مـن غربته في أحضانها.. قال لها:

ـ أفكر في زيارة للقاهرة.

تحسست جوليا جسد زوجها كعادتها وهي تقول:

ـ مـا المانع.. أود أن أرافقك لأطمئن على نور.. حاولت الاتصال بها ولكني لم أستطيع أن أتواصل معها.

ـ لماذا؟

ـ الموبايل مغلق منذ يومين ولا تجيب على الخط الثابت.

اعتدل المهندس "علي" بعصبية وصرخ في وجه زوجته:

ـ لماذا لم تخبريني؟

قالت وهي تحاول أن تطمئنه:

ـ لم أردْ إزعاجك.. لا تقلق هذه ليست أول مرة.. لا تقلق يا علي.

أمسك بهاتفه وأجرى اتصالاً بنور ولا جديد الهاتف المحمول مُغلق والخط الثابت لا يجيب.. جُن جنونه وبحث عن رقم "سليم" ابن عمه وبعد لحظات جاء صوت سليم من القاهرة:

ـ مرحبًا يا علي.

ـ أهلًا يا سليم.. كيف حالكم؟

ـ الحمد لله يا علي الجميع بخير..

قاطعه المهندس علي:

ـ ونور.. كيف هي؟

ـ لم أرَها منذ حفل زفاف ابنة عمها ولكنها بخير.

قال المهندس علي يترجى سليم:

ـ اذهب الآن إلى الزمالك يا سليم واطمئن عليها.. لم تجِبْ على التليفون منذ أمس وهاتفها المحمول مُغلق.

ـ تمام.. سأذهب إلى الجزيرة مباشرة.. أنا في وسط البلد وخلال دقائق سأهتفك انتظرني.

قطع المهندس علي الاتصال وجلس ينتظر.. توترت جوليا هي الأخرى بعدما رأت زوجها قلقًا.. مرت أكثر من نصف ساعة حتى أضاء موبيل المهندس علي فالتقطه قبل أن يصدر صوت.. قال لسليم:

ـ ما الأمر يا سليم؟

ـ سيارتها أسفل المبنى.. يقول الحارس إنها لم تتحرك منذ أسبوع، ويقول أيضًا إنها تخرج دائمًا دون السيارة لأنها لا تجيد القيادة في شوارع القاهرة وعندما صعدت إلى الشقة

لم تكن بالداخل.. الحارس لم يراها منذ ثلاثة أيام.

قال المهندس علي:

ـ أنا قادم يا سليم.. الأمر يقلقني وسأذهب فورًا لوزارة الخارجية وألتقي المسؤولين.. على السفير الأمريكي في القاهرة أن يهتم بالأمر..

قاطعة سليم:

ـ انتظر يا علي ستكون على ما يرام..

انفعل المهندس علي:

ـ بعد ساعات سأكون في القاهرة.. انتظرني يا سليم.

هرول المهندس علي وارتدى ملابسه على عجل قاصدًا شركة الطيران التي يقصدها كلما سافر إلى القاهرة، ثم قصد من بعدها وزارة الخارجية الأمريكية بواشنطن.. قطع مسافة 370كم وهي المسافة بين واشنطن ونيويورك في ثلاث ساعات ونصف.. التقى أحد المسؤولين عن رعايا الولايات المتحدة الأمريكية بالشرق الأوسط وشرح له الموضوع وعلى الفور كان السفير الأمريكي لدى القاهرة علم كامل بالأمر وحصل على بيانات نور وكل المعلومات التي يحتاجها.

أن تختفي فتاة أمريكية في مدينة كالقاهرة، فهذا أمر يجعل السفير الأمريكي يثور وينتفض من أجل الحفاظ على هيبة الدولة الأكبر في العالم..

عاد المهندس علي إلى نيويورك وكانت جوليا زوجته قد أعدت حقيبة ملابسه وتوجه دون أن ينام إلى مطار "جون أوف كينيدي" من أجل اللحاق بالطائرة المتجهة إلى مطار القاهرة.

في الطريق للقاهرة كانت أعصاب المهندس علي تتكسر

شيئًا فشيئًا.. في مطار القاهرة استخدم جواز سفره الأمريكي على غير العادة حتى ينهي إجراءات الدخول سريعًا.. على باب المطار كان "سليم" ابن عمه في انتظاره وتوجها إلى جزيرة الزمالك.. استخدم المهندس علي مفتاحًا يحتفظ به منذ زمن بعيد لفتح باب شقته.. في الداخل كان كل شيء في مكانه ولم يلفت انتباه المهندس علي إلا فنجان قهوة أُعد منذ أيام ولم يمهل القدر من أعده فرصة لاحتسائه.. بحث عن أثر نور في الشقة فلم يجد لها أي أثر.. ترك حقيبته وترك جزيرة الزمالك على عجل إلى جاردن سيتي قاصدًا السفارة الأمريكية..

في السفارة انتظر لقاء السفير بعد أن تخطى كل الحواجز بجواز سفره.. بعد دقائق جاءه السفير بخطى واثقة راسمًا ابتسامة على وجهه لعلها تطمئن المهندس علي ولكنها استفذته وهذا ما شعر به السفير مما جعله يعجل بالحديث قائلًا:

ـ سينتهي كل هذا على خير..

قاطعه المهندس علي:

ـ ما الأمر؟

قال السفير:

ـ ابنتك محتجزة بإحدى الجهات السيادية..

قاطعه المهندس علي من جديد:

ـ جهة سيادية!!.. لماذا؟

أجابه السفير:

ـ هذا ما سنعرفه بعد قليل ولكن الأهم أننا عثرنا عليها.

قال المهندس علي:

ـ نور لم تثِرْ أي قلق منذ إقامتها بالقاهرة ولم نعرف عنها

انشغالها بالقضايا السياسية..

قاطعه السفير هذه المرة:

ـ ولـو افترضنا كل هذا.. لا تقلـق وما عليك إلا أن تنتظر معي قليـلًا فبينما نحن نتحدث الآن هناك من يسـعى من أجل نور وهـم من أخبرونـي بهذه المعلومـات وسـيهاتفونني بعد قليل لإطلاعي على كل جديد.

صمـت السـفير ولم يجـد المهندس علي ما يقـول وهو لا يعرف تفسـيرًا واضحًا.. هل يسعد أم يقلق وأخذ يحك فروة رأسه بعصبية فتنبه السفير لتوتره فقال:

ـ نحن هنا بعثة كبيرة.. نعمل من أجل نور ومن أجل كل رعايا الولايـات المتحـدة الأمريكيـة.. أنـا مسـؤول أمامـك وأمام دولتنـا العظيمة عـن نور.. لهذا منذ أن علمـت بأمر غيابها لم أهدأ حتى تعود لها حريتها.

قال المهندس علي:

ـ شـكرًا سعادة السفير ولكني أب لا يعلم عن ابنته شيئًا منذ ثلاثة أيام وعليك أن تقدر ما أنا فيه.

ابتسم السفير وهو يقول:

ـ هذا طبيعي وأنا أعي ذلك.. انتظر في الاستراحة قليلًا وقريبًا جدًا ستكون ابنتك بين أحضانك.

توجـه المهندس علـي إلى الاسـتراحة الملحقة بالسـفارة وأراح جسـده بعد أن أجرى اتصالًا بزوجته وآخر بابن عمه "سـليم" وخلد للنوم بعد أن شعر بطمأنينة داخل السفارة الأمريكية.

* * *

استعان إسلام بسمر من جديد.. أرسلها لتطمئن على والدة أبو الدهب وعندما سألته عن عدم ذهابه.. قال:

ـ ألم أحدثك من قبل عن نظرة الناس لي.. أنا لم أدخل بيت أبو الدهب منذ سنين.. والدته لا تحب أن تراني في بيتها..

صمت يداري الخجل ثم أردف:

ـ هي لا تعلم عن صداقتنا شيء.. أبو الدهب لم يصارحني بذلك ولكني أعلمه.. لذلك دائمًا ما نلتقي عند النيل.. هناك يبدأ كل شيء وأيضًا ينتهي كل شيء.

اصطحابها إلى بيت أبو الدهب وانتظرها أسفل البيت بعدما أخبرها عن طبيعة مهمتها.. بعد ساعة تقريبًا عادت إليه في حالة يرثى لها فتوتر وسألها:

ـ ماذا حدث؟

قالت بصوت حزين:

ـ دخلت عليها وهي تبكي وخرجت وهي تبكي.

قال إسلام في أسى:

ـ مسكينة.. أبو الدهب هو كل ما لها في هذه الدنيا.. المهم الآن ماذا..

قاطعته:

ـ أخبرتها بالحقيقة..

صرخ في وجهها:

ـ ماذا!؟

ـ لن يفيد كذبنا.. لا تنسى أن أبو الدهب قبض عليه داخل منزله أمامها.

قال بعد أن هدأ :

ـ حقًا.. لم أفكر في هذا الأمر.. أنتِ على صواب ولكن كيف كان رد فعلها؟

ـ على عكس مخاوفنا تمامًا.. أطمأنت بعض الشيء عندما أخبرتها بخروج أبو الدهب قريبًا وأقسمت لها أكثر من مرة..

ـ وماذا لو لم يخرج؟

ـ سيخرج.

توجها معًا إلى مقهى في جزيرة الزمالك وعندما جلسا نظر إليها إسلام متعجبًا :

ـ من أين لكِ بهذه الثقة.. هذا الرجل لا يرحم وأنتِ أكبر دليل.

أدركت مقصده.. قالت:

ـ قد تكون على حق.. لا بد أن نخبر والد أمجد وهذا دورك.

ـ على استعداد ولكني لا أعرف عنوانه..

قاطعته:

ـ حصلت على عنوانه من والدة أبو الدهب بعدما حدثتني عن زيارتها له بعدما ضاق بها الحال.

نظر إليها في تعجب:

ـ ما أروعك.. من أين لكِ بكل هذا؟.. الكل يراكِ وردة جميلة لا تعلم عن هموم الدنيا شيئًا.

ـ وردة نبتت في ساحة معركة وداسني المنتصر والمهزوم ولم يرفق بي أحد.. أنا أمزح كثيرًا ولا أكُف عن الضحك وهذا حزن ودموع لمن يجيد الرؤية.

ـ أنا مثلك..

قاطعته في بهجة:

ـ ولكنك أفضل مني حالاً.

ـ كيف؟

ـ على الأقل لم يغتصبك أحدهم.

ضحك فضحكت وتوجها إلى "الدقي" بحثًا عن منزل أمجد إلى أن عثرا عليه.. انتظرته في سيارتها.. عاد بعض نصف ساعة.. سألته:

ـ ماذا حدث؟

ـ لم أجد والد أمجد ولحسن الحظ عند عودتي صادفت والدته وأخبرتها بكل شيء.. أطمئنت هي الأخرى وشكرتني وهي تستعد لإجراء مكالمة تليفونية أظنها لزوجها.. لم أكن أتوقع أنهم بهذا الثراء.. أمجد أبن بلد وتخيلت أنه مثلنا.. هو حقًا مثلنا.

صمت لثواني ثم أردف:

ـ وماذا الأن أيتها القائدة؟

أختلط صوتها بصوت محرك السيارة:

ـ سهرة في المركب.. ألا أستحق؟

تأمل سحرها وروعتها وتفاعل شعرها مع الريح ولم ينطق.. نظرت إليه فأدركت تموج أفكاره على شواطئها.. مطت شفتيها فزادت من حيرته فتنهد وقال:

ـ ماذا أعجبك في هذا المركب البسيط؟

ـ وجدت ما كنت أبحث عنه لأول مرة هناك.. لا تحرمني من هذا الشعور.

ـ إذًا فلنتوجه صوب كورنيش إمبابة.. أريد أن أخبرك شيئًا.

ـ أي شيء؟

تشجع وقال:

ـ أنا أيضًا وجدت ما كنت أبحث عنه في نفس الوقت.. كنت أبحث عمن يعيد إلي روحي.. أنتِ يا سمر.

منحته نظرة حانية وهي تردد:

ـ أنا!!

ـ نعم أنتِ.. منذ هذه الليلة وأنا أتعثر في أشياء جميلة كنت قد فقدتها.. صورة من الطفولة مع أمي وأبي كنت أهملتها من سنين.. تأملتها بشجن ودموع وتعثرت بأوراق قديمة تحمل أحلامي وحروفي ورسوماتي وأسماء أصدقاء هجرتهم.. أنا مدين لكي بالكثير يا سمر.

قالت بصوت طفولي:

ـ سأحتضنك الليلة حتى تزيدني من هذا الكلام الجميل.

ـ حضنك!!

ـ نعم.. هل تمانع؟

ـ هذا شيء صعب المنال.. هل أنتِ جادة في ذلك؟

تلون وجهها وهي تقول:

ـ يبدو أنك نسيت طبيعة العلاقة التي تجمعني بالدمياطي.. لماذا تعاملني كقديسة.. هذا شيء يؤلمني ويحرقني من الداخل..

قاطعها:

ـ أنتِ أطهر ما في هذا البلد.. أنتِ من أصابك ظلمها.. أنتِ القديسة التي تُطهر نجاستها.. لا تتألمي فهذه الوجوه التي تُشغل الطرقات وتطل من الشرفات هي التي يجب أن تتألم..

يشاهدون الظلم بتبلد.. يصنعون جبروت السلطة بضعفهم.. لا أتجنى إن قُلت إنهم نزوات الدمياطي وهُم قوة انتصابه.

ابتسمت.. غابت وعادت.. قالت هامسة:

ـ لست غادة الكاميليا..

ـ من؟

ـ غادة الكاميليا أو مارجريت جوتيه أو فيوليتا فاليري أو ماري دوبليس.

ـ أنا لا أفهمك.

منحته ابتسامه صار يعشقها وهي تقول:

ـ سأحكي لك فمازال أمامنا طريق مزدحم ومتسع من الوقت.. ماري دوبليس هي عاهرة باريسية عشقت شابًا من أسرة ثرية كان يدعى أرمان.. رفضت الأسرة الأرستقراطية العلاقة وأبعدت الشاب أرمان عن دوبليس فتقبلت الأمر وماتت جميلة وحيدة في بيتها.

ـ ومن غادة الكاميليا؟

ـ هي نفسها ماري دوبليس.. الكاتب الفرنسي الشهير ألكسندر دوماس سرد قصة دوبليس في رواية شهيرة هي رواية «غادة الكاميليا» منح فيها دوبليس اسمًا مستعارًا هو مارجريت جوتيه وعندما حققت الرواية نجاحًا كبيرًا تم تحويلها لمسرحية وكان اسم دوبليس على المسرح فيوليتا فاليري وتحولت للسينما أيضًا.

ـ وما هي غادة الكاميليا؟..

ـ هي زهرة جميلة لا يراها إلا الكُتاب المبدعون.. سرد دوماس في روايته أن مارجريت جوتيه التي هي في الأصل

مـاري دوبليـس كانت تحمـل زهرة غـادة الكاميليـا دائمًا فكانت تحملها بلونها الأبيض خمســة وعشرين يومًا وبلونها الأحمر خمسة أيام.

قال متعجبًا:

ـ لماذا الأبيض خمسة وعشرين يومًا والأبيض..

قاطعته:

ـ لم يعلم أحد ولم يفسر دوماس ذلك.

فرك إسلام فروة رأسه دون داعٍ:

ـ وما الذي أحضر إلى ذهنك هذه القصة؟

ـ أنت.

ـ أنا!.. كيف؟

ـ تراني قديســة يا إسلام.. عندما اقترب موت مارجريت جوتيه أو فاليـري أو دوبليـس.. سـميها كما تشـاء.. عندمـا اقترب موتها اسـتدعت القس حتـى تعترف بخطاياهـا.. تردد القس كثيـرًا قبل أن يذهب إلى بيت العاهرة الشـهيرة ولكنه في النهايـة ذهب.. ظـل في بيتها بضع سـاعات وعندما خرج قال «مارجريت عاشت عاهرة وستموت قديسة».

سألها إسلام:

ـ ولماذا نطق القس بهذه الكلمات؟

قبل أن تحكي له سـمر عن السبب كان المركب ينتظر على بُعد خطوات منهم فقالت:

ـ هـذه قصــة طويلة ولكن أنـت تقول إنك مدين لـي بالكثير وفـي الحقيقـة أنا من يجـب أن يقول هذا.. أنـت وأصدقاؤك أخرجتمونـي مـن بؤسـي وشـقائي.. والآن فلتذهـب وتُعد لنا

المركب.. سألتحق بك عندما أري الرجل الصعيدي يعبر الطريق وتحجبه البيوت.

بعد دقائق رأت الحاج إسماعيل يحمل طرف جلبابه قابضًا على ورقة نقود وهو يتلعثم في سعاله من أثر الشيشة.. تركت سمر السيارة وسارت نحو المركب فما كان من إسلام عندما لمحها من بعيد إلا الجلوس على ركبتيه عند مقدمة المركب وأشار للنيل وهتف:

ـ أيتها القديسة هذه المياه مرت برحلة عظيمة.. رأت الأهوال.. تلوثت وتحملت.. لكنها غاضبة عكرة.. فهل لكِ أن تطهريها بأناملك وتغسليها بوجهك.

رأت سمر في عيون إسلام حكاية عشق ليست ككل الحكايات فتوترت ولم تجد ما تقول فتسمرت عند شاطئ النيل.. عاود إسلام هتافه:

ـ اقتربي قليلًا وطيبي غضبًا قد يطول.. مشطي بأناملك سطح هذا الماء الراكد ليتحرك.. واغسليه بنور وجهك ليروق.

اقتربت سمر وهتفت هي الأخرى:

ـ أنا سمر أيها الواهم.. كيف تراني؟

ـ أراكِ وكأني لم أرى فتاة من قبل.. أقتربِ أكثر لأوضح لكِ.

صعدت سمر إلى سطح المركب وبداخلها رغبة نحو تدوين كل كلمة نطق بها إسلام وكل كلمة سينطق بها.. ستلحنها وتغنيها وترقص على أنغامها.. جلست بجانب إسلام كما هو جالس والتصقت به فشعر بثورة الدم في عروقه.. قالت بصوت طفولي:

ـ والآن ماذا على أن أفعل؟

تشجَّع أكثر وهو يقول:

ـ أنا من سيفعل.. انتظري.

مال نحو النيل وبلل كفه من مائه واقترب من سـمر مرة أخرى ومـرر كفه برفـق على وجهها فأغلقت عينيها وشـعرت بارتجافة تسـري بجسـدها.. شـعرت بدفء المشـاعر وبـرد المياه.. خشـونة كفه ونعومة مشـاعره.. أمسك إسلام بكفيها وبللهم أيضًا عندها همست في لين:

ـ ماذا تفعل؟

ـ أُطيب ماء النيل.

ـ أنت مجنون.

ـ ومـا العقـل أمام فتـاة تحمل من الجنـون جبالًا ومـن الجمال أوطانًا.

كانـت مـا تزال مغمضـة عينيها.. ربمـا خوفًا من فقد الشـعور الذي لم تشـعر به من قبل.. تحسسـت المكان حولها وأمسـكت بإسلام واحتضنته وهي تهمس من جديد:

ـ هذا الحضن الذي وعدك.

مـرت دقائـق من حياة إسـلام فـي حضن سـمر وهـو معلق بين الحقيقـة والخيـال.. يرتجـف كالمريض بالحمى.. قبـل هذه الليلة كان يرتمـي في أحضان المومسـات منتحرًا، أمـا هذه المرة فهو يتحسس أول درجات سلم الحياة بعدما غادرها قبل سنين.. لم يجد ما يمنعه من البكاء فسقطت دمعة كبيرة منه أشعلت جسد سمر فسألته:

ـ ما الذي يبكيك؟

ـ تحـررت عينـي فتركـت لها العنـان.. تبكـي وتضحك على شاب وُلد بعد أن عاش ربع قرن وأكثر.

ـ كيف؟

ـ لأول مرة أدرك قيمة الحياة.. لا تتركيني يا سمر.

ـ لن أتركك ولكن لا بد أن تدرك طبيعة حياتي.. الدمياطي لن يتركني..

قاطعها بحده بعد أن ضمها بقوة وهو يصرخ:

ـ لن يمسكِ مرة أخرى.. من اليوم أصبح هذا الرجل هدفي ومهرك وأنا لن أعود لحياتي السابقة.. اغتسلت وتطهرت لصلاتك.

ـ أخاف عليك؟

ـ ليس هناك أسواء من أن يمسك هذا الرجل مرة أخرى.. امنحيني شرف الدفاع عنك.

ـ لم أود أن أورط أخي في هذا الأمر خوفًا عليه.. كيف أدفع بك إلى جبروت هذا الرجل ولا أبالي.

شد على معصمها وهمس في أذنها:

ـ أنا من اختار هذا الطريق وأعلم كيف أتصدى لهذا الجبروت.

ـ إذًا أقبل بشروط..

ـ ما هي؟

نظرت إليه نظرة مليئة بالحب وقالت:

ـ لا تخطو خطوة نحو هذا الرجل إلا بعلمي.

ـ أعدك.

ابتسمت:

ـ وأنا أعدك أنه لن يمسني مرة أخرى.

* * *

في السفارة الأمريكية استيقظ المهندس "علي" بعد أن راح في نوم عميق.. هرول إلى الباب فوجد من ينتظره وسار به حتى مكتب السفير.. كان السفير في انتظاره يقلب بعض الأوراق.. استقبله بوجه بشوش وطلب له نسكافية وطمأنه قائلًا:

ـ نور في الطريق إلينا.. لا تقلق.

فرك المهندس على عينيه وسأل السفير:

ـ لماذا احتجزوها إذًا؟

أشار السفير إلى الأوراق التي أمامه:

ـ أمامي أوراق تدعي جريمة بلا دليل.

ـ جريمة!

ـ نعم.. الأوراق تتهم نور مع آخرين بالضلوع في الإعداد لاحتجاجات نقابية وعمالية عن طريق بعض القيادات من المعارضة المصرية.

ـ هذا غير معقول..

قاطعه السفير بهدوء:

ـ اتفق معك.. هذه ادعاءات وكلام مرسل لا يستند لأي دليل.

ـ إذا لماذا نور؟

ـ هذا ما سنعرفه منها خلال دقائق.. نستطيع أن نطالب باعتذار وتعويض وربما معاقبة المخطئ.. من احتجزها لا يمتلك ما يدينها بدليل الإفراج عنها بهذه السرعة ودون اعتراض.

ارتشف المهندس علي من النسكافية واعتدل في جلسته وقد أطمئن.. قال:

ـ سيادة السفير باسم أسرتنا الصغيرة نشكركم

لمجهوداتكم.. أما الآن فكل ما أريده هو أن أعود بنور إلى أمريكا.

قال السفير:

ـ وما المانع؟

ـ منذ مجيئها إلى القاهرة من أربع سنوات وهي ترفض العودة إلى نيويورك.. حضرتك يا سيادة السفير من سيساعدني في اصطحابها إلى أمريكا.

ـ كيف ذلك؟

ـ سنخبرها أنها غير مرحب بها في مصر في هذه الفترة التي تمر بها القاهرة، وأنها قد يمكنها العودة مرة أخرى عندما يستقر الوضع السياسي والأمني، وأن الاتهامات سقطت عنها مقابل مغادرة القاهرة على الفور.

صمت السفير لحظات يفكر ثم قال:

ـ هذه إهانة لمواطنة أمريكية وإهانة لنا كسفارة أمريكية.. نحن هنا من أجل أن نمهد الأجواء ونزيل العقبات أمام مواطنين الولايات المتحدة..

قاطعه المهندس علي:

ـ هذه إهانة تسقط وتزول أمام انتشال فتاة أمريكية من مصير مجهول يا سيادة السفير.. هنا ستتحقق الغاية من سعيكم المشكور.

تحسس السفير علم الولايات المتحدة الأمريكية الذي لا يفارق مكتبه وهو يقول:

ـ نعم أنت على حق وأمريكا أولى بمواطنيها وستعود نور معك.. لا داعي للقلق الآن ولكن لماذا تصر فتاة في هذا

السن على ترك أرض الأحلام والعيش هنا في الزحام والتلوث والظلم الذي يطول الجميع؟

تحشرج المهندس علي وهو يتذكر سبب بُعد نور عن أمريكا.. أخفى ما بداخله وقال:

ـ لا أعلم يا سيادة السفير.. نور جاءت إلى القاهرة لأول مرة وهي في بداية العقد الثاني من عمرها ولم تتركها إلى الآن.. حاولت كثيرًا ومعي والدتها في إقناعها بالعودة ولكنها كانت ترفض دائمًا.

مرت دقائق والمهندس "علي" لم يكف عن الكذب.. بداخله رغبة وحيده وهي العودة برفقة نور إلى أمريكا.

أثناء هذه الدقائق كانت نور برفقة رجلين أدركت هويتهم منذ أن رأتهم.. خرجت دون أن ترى الدمياطي حيث كانت تطلع لرؤيته.. لم تنسَ نبرة صوته القميئة وودت لو كانت تستطيع مساعدة أمجد وأبو الدهب ولكنها كانت تدرك طبيعة مهمة الرجلين فلم تتحدث معهم كثيرًا وانصاعت لهم من البداية.. استقلت معهم سيارة دبلوماسية وتوجها مباشرًا إلى السفارة الأمريكية.. لم يخبرها أيٌّ من الرجلين بوجود والدها.. عندما دخلت مكتب السفير تسمرت على الباب لحظة عندما رأت والدها ثم اندفعت كشلال في حضنه وهي تبكي.. قال السفير ملطفًا الأجواء:

ـ أجلسي يا نور.. ألهذه الدرجة افتقدتِ والدك؟

جلست وجلس المهندس علي وعاود السفير حديثه:

ـ تأخرنا عليكٍ.. في الحقيقة أنتِ السبب لأنك مقيمة في القاهرة منذ فترة طويلة ولم تطأ قدمك سفارتنا ولا نعلم عنكِ شيئًا.. نحن هنا من أجلك يا نور.

قال المهندس علي:

ـ ما أفسدته نور في أربع سنوات أصلحته أنت يا سيادة السفير..

قاطعته نور بصوت عذب:

ـ أنا لم أفسد شيئًا يا بابا.

سألها السفير:

ـ ما الذي حدث يا نور؟.. ما أعلمه هو تورطك في تنظيمات تهدف لإثارة العمال ضد سياسة الدولة المصرية.. منذ متى وأنتِ مهتمة بالعمل الحقوقي؟

اندهشت نور ونطقت بثبات:

ـ هذا ليس حقيقيًا.. لم أسعَ إلى هذا والأمر ليس له علاقة بعمل سياسي أو حقوقي.

اعتدل السفير وسألها بنبرة جادة:

ـ ما الحقيقة يا نور؟

ـ صدفة عجيبة جمعتنا أنا واثنان من الأصدقاء برجل اسمه سمير الدمياطي.. لم نتعمد أن نهينه ولكنه تعمد إذلالنا.. هذا ظلم لم أعلم به من قبل..

قصَّت نور أمام والدها للسفير ما حدث في قصر البارون وكيف كان رد فعل الدمياطي.. لم تبكي ولم تهتز وهي تصف الظلم والليالي الباردة التي مرت عليها في غرفة مخيفة..

تأثر السفير ونظر للمهندس علي الذي بادله نظرة شعر السفير منها أن الرجل مصرًا على تنفيذ ما اتفقا عليه.. عندها قال السفير:

ـ كوني على ثقة يا نور أننا لن نتجاهل هذا الظلم ولن نقف مكتوفي الأيدي أمام فساد هذا الرجل ولكن هذا يتطلب تدخل من نوع خاص حتي لا يقال إننا نتدخل في الشأن الداخلي المصري.. كل ما عليكِ الآن هو العودة لأمريكا

مع والدك حتى ننهي هذا الأمر.

تلونت نور وهي تقول:

ـ لن أعود.. لن أترك أصدقائي ولن أترك دراستي وحياتي التي تعودت عليها.. لن أساعد هذا الرجل في تحقيق ما يرغب.

تدخل المهندس علي ليزيل الحرج عن السفير وقال لنور:

ـ الحقيقة يا نور أنك من اليوم أصبحتِ غير مرحب بكِ في مصر.

صرخت نور:

ـ كيف ذلك وماذا فعلت لكل هذا؟

تدخل السفير:

ـ هذا الوضع لن يدوم وستعودين مرة أخرى.

هتفت نور:

ـ هذا مستحيل.. لن أخرج من مصر.

قال المهندس علي:

ـ يا نور ألم تشتاقي لوالدتك وشقيقك.. ألم تحني إلى والدك.. لماذا يا ابنتي هاجرتي أسرتك وترفضي العودة؟

قالت نور وهي تجفف دموعها:

ـ لا يا بابا.. لم أهجركم وأنت تعلم لماذا هجرت أمريكا.. تعلم أيضًا مدى حبي لكم ومدى قربي منكم ولكنني منذ أن أقمت في القاهرة وأنا سعيدة واكتشف أن هذه هي الحياة التي أريدها.. من فضلك يا بابا لا تسمح لهم بذلك..

قاطعها والدها:

ـ يا نور هذا الأمر لن يطول.. لقد تدخلت السفارة وأخرجتك

مقابل مغادرتك القاهرة..

تدخل السفير:

ـ أعدك يا نور أن هذا الإبعاد لن يطول وقريبًا ستعودين.

شعرت نور أن خروجها من مصر أصبح شيئًا حتميًا وتذكرت أمجد بالأسى والدموع.. جففت دموعها وتذكرت أبو الدهب وكيف كان يفاوض الدمياطي وتحدثت بنبرة قوية مثلما كان يتحدث للدمياطي.. قالت:

ـ إن أجبروني اليوم على الخروج من وطني فلن ينتهي الأمر.. بل سيبدأ.. لن أترك هذا الرجل يحدد إقامتي..

سألها والدها:

ـ كيف يا نور؟

ـ لم أعمل بالعمل الحقوقي من قبل وستكون أول قضية أعمل بها هي قضيتي.. سأخبر العالم بقصتي.. سأذهب لأبعد مكان وأصرخ ضد هذا الظلم الذي طالني وطال أصدقائي.

استنجد المهندس علي بالسفير فقال السفير بدبلوماسية:

ـ هل يهمك أمر أصدقائك لهذه الدرجة؟

لم تتوانَ لحظة:

ـ نعم.. أمجد وأبو الدهب ضحوا من أجلي وقبلوا شروط الدمياطي حتى لا يمسني.

كان على السفير أن يستحضر ماضيه المزدحم بالقضايا الشائكة والتي نجح فيها بحنكته وقدرته على التفاوض.. قال:

ـ ماذا لو منح هذا الرجل الحرية لأصدقائك مقابل خروجك من القاهرة؟

اهتزت نور وهي تقول:

ـ هذا جاد.. سيتركهم حقًا؟

قال السفير في ثقة:

ـ أنا أعي ما أقول.. بمجرد أن تصعدي الطائرة سيكون أصدقائك في الشارع.

سألته نور:

ـ ومتى سأعود؟

قال السفير:

ـ هذا الأمر عائد إليكِ.

ـ كيف؟

ـ لا تثيري مشكلة وقريبًا جدًا ستتمكنين من العودة.

كان على نور أن تتدبر الأمر.. شعرت بفوران في رأسها.. لم تتخيل يومًا أن تعود إلى نيويورك كما جاءت.. منهزمة.. تذكرت ماضيها في نيويورك.. كانت بداخلها ظنون قاتلة وخيالات مرعبة.. ماذا لو لم تتمكن من العودة مجددًا؟.. ألن ترى أمجد مرة أخرى؟.. كان عليها أن تقرر قبل أن تخرج من السفارة..

في دقائق تتخذ قرار قد يحدد مصير سنوات.. دقائق يختلط فيها كل شيء.. الخوف بالشجاعة.. الماضي بالمستقبل.. الشغف بالتبلد.. حب شخص وكراهية آخر.. أنت مجبر أو هكذا تظن.. أنت مخير أو هكذا يعتقدون.. نار هنا وأخرى هناك.. لا جنة الآن.. تختار النار التي تصنع جنة لآخر تحبه أو هكذا تتمنى.. في الحياة هذه للسافلين سطوة وللحالمين مشاعر وأحلام وورود تروى بالدموع.. الحلم جميل وقصير ونهايته بائسة.. هنا فوق الأرض وتحت السماء شيطان يصنع لك الحواجز العالية ويقيد أطرافك ثم يقف بعيدًا ينظر كيف تجتاز ما صنعت يداه.. بئس ما صنعوا

شـياطين الإنـس.. سـيأتي عليـك يـوم وأنـت تنخر بأناملك سـقف السـماء لتكلم ربك.. لست موسـى ولن تكون.. ابكي فهو يسمع صوت الدموع.. اصرخ فالله يعرف والله يعلم والله يرى وينظر والله ابتـلاك بشـيء تظنه هـلاكًا.. اختار وقرر بحيـرة وظن وعبث ولهو ومجـون.. لن تجـد اليقين الآن ولن تجده اليوم وقد يكون غدًا وقد لا يكون وعندها ستموت وأنت تسأل ما اليقين؟.. كالجندي الذي يهلك في وسـط المعركة ستموت.. لا نصر ولا هزيمة.. لا عيب ولا فضيلـة.. هنا الرمال تواريك في الشـتاء مرة وفي الصيف السـاخن مـرات.. ماذا لو انتصـرت؟.. وماذا لو هُزمت؟.. ماذا لو وجدت إجابة ولم تجد السـؤال؟.. ماذا لو كنت حيًا بجسد متعفن؟.. ماذا لو فنى جسدك ثم نبت وردة في أرض قاحلة بين الصخور؟.. يا أنت.. كيف يكـون النـداء؟.. وكيف تكـون التلبيـة؟.. الأنبياء أجابـوا النداء وأجـادوا التلبيـة وأنت بلا رسـالة ولا كتاب.. لا تخـاف وارتعد.. لا تأمن واسترح..

أتعلم أين أنت الآن؟

أنـت تقـرر.. أنت تختار.. أنـت المخير كما ظنـوا.. أنت المجبر كما تظن..

* * *

جلس الدمياطي في مكتبه يتحسس أثر الضيف الذي مكث بالمكان لأكثر من ساعة.. ضيف ثقيل الظل يتحدث بأسلوب لم يتبينه الدمياطي.. هل هو تهديد ووعيد أم كان اتفاقًا بعد أن التقت المصالح والرغبات.. لم يفكر كثيرًا وأمر أحد معاونيه بجلب أمجد وأبو الدهب من محبسهم.. لكن يبدو أن الضيف أربكه حيث سمح دون قصد بدخول أمجد بعيون يقظة تستكشف تفصيله وملامحه.. لم يتبنه إلا بعد فوات الأوان فلم يبدِ أي مخاوف أو غضب.. دخل الصديقان بهامات عنيدة ونظرات قوية.. كان الدمياطي يعبث بقلم كلاسيكي يعرفه جيدًا جيل أمجد وأبو الدهب.. لوح الدمياطي بالقلم وسألهم بعد أن أمرهم بالجلوس:

ـ هل تعرفون نوع هذا القلم؟

ابتسم أبو الدهب وأجاب أمجد ساخرًا:

ـ إنه من النوع "بيك. BIK".. هل تعاني من اضطرابات بسبب هذا القلم؟

ابتسم الدمياطي ولم يلتفت لسخرية أمجد.. قال:

ـ هذا القلم هو الأعلى مبيعًا في العالم.. يُقال إن هناك أكثر من 40 مليون شخص يتطلعون يوميًا لشرائه..

قاطعه أبو الدهب:

ـ أمنحني هذا القلم لثوانٍ يا سيدي.. أريد أن أخبرك عنه شيئًا.

لم يمانع الدمياطي ومنح القلم لأبو الدهب.. أمسك أبو الدهب بالقلم وأردف:

ـ هل تدري ما قيمة هذا الثقب الذي بالمنتصف؟

جذب الدمياطي القلم من يد أبو الدهب ونظر للثقب وأطال

التفكير وتصنع عدم الاهتمام بعدما عجز عن التفسـير.. شعر أبو الدهب بحال الرجل فقال:

ـ يبـدو أن جيلنـا يهتم بالتفاصيل أكثر من جيل سـمير باشـا الدمياطي.. إنه يجعل الضغط داخل القلم كالضغط خارجه وبالتالي لن يفسد القلم.

انتهز أمجد الفرصة هو الآخر الفرصة لقتل غرور الرجل وقال:

ـ هل لك أن تمنحني القلم للحظات يا باشا؟

ارتبك الدمياطي ولم يجد سببًا ليرفض.. نزع أمجد غطاء القلم وأشار به وهو يقول:

ـ هل تعلم سبب الثقب أعلى الغطاء؟

لم يمنح الدمياطي نفسه فرصة للتفكير وقال بتوتر:

ـ لا.. لماذا هو؟

سأله أمجد بثقة أستاذ جامعي متمرس:

ـ ألديك أحفاد؟

صغر الرجل أمام الصديقين.. رد:

ـ نعم.

أردف أمجد:

ـ لو افترضنا أن أحدهم ـ لا قدر الله ـ ابتلع هذا الغطاء فالثقب سيسمح بمرور الهواء وبالتالي لن يحدث اختناق.. أين نور؟

كان سـؤال أمجد كتدخل جراحي في الوقت المناسـب.. قال الدمياطي:

ـ أنـت الآخر كصديقـك.. تراوغ وتحاور وتذهـب بي إلى ثقب غطاء القلم وأنت تفكر في الأمريكية الحسناء..

قاطعه أمجد بحدة:

ـ فلتفي بالعهود يا معالي الباشا.. أين نور؟

تلعثم الدمياطي ونطق بصعوبة:

ـ أتعلم من كان يجلس على نفس المقعد الذي تجلس عليه قبل دقائق؟

ـ من؟

ـ السفير الأمريكي.

تدخل أبو الدهب:

ـ ألم تتوقع هذا يا باشا؟

نظر الدمياطي لأبو الدهب وقال:

ـ لم أفكر كثيرًا في هذا الأمر.. أنا لا أهاب أحدًا حتى لو كان السفير الأمريكي.

كتم أمجد غيظه وسأل مجددًا:

ـ أين نور؟

قال الدمياطي لأمجد:

ـ صديقتك خرجت من هنا أمس.

قال أبو الدهب:

ـ لماذا جاء السفير الأمريكي إذًا؟

أجاب الدمياطي:

ـ جاء من أجلكم.. يبدو أن صديقتكم أجبرت على الخروج من مصر فأبت أن تخرج وأنتم هنا وساومت من أجلكم.

لم يستوعب أمجد أو رفض الاستيعاب فسأل الدمياطي:

ـ ماذا تعني؟

قال الدمياطي بوجه كالح:

ـ صديقتك تركت مصر مرغمة وهي الآن في طريقها لنيويورك.

صرخ أمجد:

ـ مرغمة كيف!؟.. من أرغمها؟

رد الرجل دون أي شعور بالذنب:

ـ السفارة الأمريكية وربما أسرتها أيضًا.. هذا ما تبينت من حديث السفير.

سأله أبو الدهب:

ـ ماذا قال السفير؟

ـ قال إن نور لن تتواجد في مصر الفترة المقبلة ولن يسمح لها بذلك وأنها رفضت ذلك في البداية وعندما لم تجد وسيلة للبقاء ساومت من أجلكم وكان الاتفاق هو أنها لن تصعد الطائرة قبل أن أطلق سراحكم.. وها أنا بالاتفاق مع السفير الأمريكي أحرركم.

هب أمجد واقفًا:

ـ إذًا نحن أحرار الآن.. هيا بنا يا أبو الدهب فقد نلحق بها.. لن أدع الأمر يمر هكذا.

قال الدمياطي:

ـ أفعل ما تستطيع ولكن أحذر غضبي يا ولد فأنتما إلى الآن لا تعرفا عني شيئًا.

قال أبو الدهب:

ـ ألم تدرك أنت إلى الآن ماذا فعلت بنا؟

قال الدمياطي ساخرًا:

ـ ماذا فعلت؟

ـ لو لم نلحق بنور ستكون أخذت منا ما لم يأخذه غيرك.

قال الدمياطي بجبروته المعهود:

ـ لست مثل غيري يا أبو الدهب.. لا تنسى اتفاقنا سنلتقي أول الأسبوع القادم في مكان سأخبرك به في حينها.

صرخ أمجد:

ـ هيا يا أبو الدهب الآن لنلحق بنور.

في الطريق للخروج وقف أمجد ونظر للدمياطي من جديد وقال بهدوء:

ـ قلمك الـ"بيك" يخُط 2 كيلو من الأمتار ويبدو أنك تجاوزت كيلو واحد.. كيلو متر من الظلم والتجبر ولكنك قد لا تستطيع أن تخُط الكيلو الآخر بدون هذا الغطاء فبدونه يفسد القلم.

لوح أمجد بغطاء القلم وانصرف مسرعًا تاركًا الدمياطي مع قلمه الذي تعرى أصبح بلا غطاء.

حصل أبو الدهب وأمجد على معلقاتهم قبل الخروج من المبنى المخيف بطرقاته الطويلة.. صعدوا سلالم رخامية وهبطوا أخرى.. كانوا برفقة شخص مخيف ثم انضم له شخص آخر وفجأه قاما الرجلين بتقييدهم ثم عصبوا أعينهم واقتادوهم إلى سيارة.. بعد نصف ساعة من السير في شوارع القاهرة قاما نفس الرجلين بتحريرهم بعد أن فكوا قيودهم وأيضًا منحوهم الرؤية..

بالقرب من ميدان "سفينكس" كان أبو الدهب وأمجد يتخبطون في المارة ويتكئون على الحوائط والسيارات التي تحازي الأرصفة.. أخرج أمجد تليفونه وقام بتشغيله.. كانت شمس

الدنيـا تقترب مـن المغيب فجلس أمجد علـى الرصيف يبحث عن رقـم نور وأجرى اتصــالاً فكان هاتفها خــارج الخدمة.. كم هائل من الرسائل تنهال على موبايل أمجد.. قال في شغف:

ـ حتمًا سأجد رسالة من نور.

قال أبو الدهب وهو يربت على كتف أمجد:

ـ يبدو أن نور خرجت بالفعل من القاهرة.. دع الأمر الآن وسنجد وسـيلة للاتصال بهـا وإعادتها للقاهرة مرة أخــرى.. أعدك يا أمجــد أن فراقكــم لن يطــول.. هاتف الآن أهلــك وطمئنهم.. دعنا ننصرف..

كان أمجـد يقـاوم الدموع وهو يتخيل حياتـه بدون نور وعندما تذكــر كلماتها التي تلازمها دائمًا سـقطت دمعة على الرصيف.. تذكر ندائها الدائم:

ـ أيها الوسيم.

تذكر تعمدها إثارة خجله.. قصة العم سام وتمثال الحرية وقبلة قصر البارون..

كان أبو الدهب يراقب حزن صديقه ويلعن الدمياطي وأمريكا ومصر والمصريين.. قال لأمجد:

ـ لــن نتــرك أحــدًا يفســد حياتنــا.. لا الدمياطــي ولا الســفارة الأمريكية.. نحن معًا نستطيع أن نفعل المستحيل..

ـ ماذا سنفعل يا أبو الدهب؟

ابتسم أبو الدهب لصديقه وقال:

ـ سنجفف هذه الدموع وسنصل الجسور.. سنصنع أكبر جسر من أجل نور.. هذه مهمتي أنا مهندس كما تعلم.

انتفض أمجد وجفف دموعه وهو يقول:

ـ أتعلـم يـا أبـو الدهـب.. أنا عاشـق بقلـب مشـتعل وعقل جاف وجسد محتل..

قاطعه أبو الدهب وهو يصرخ:

ـ احتلال أمريكي.

ـ نور ليست أمريكية.. هي مصرية أكثر منك.

قال أبو الدهب:

ـ نعم يا أمجد فقد اشتقت أنا الآخر لنور.. تمتلك جسد نجمات هوليود وعيون..

انفجر أمجد ضاحكًا:

ـ يا لك من حقير.

ضحك أبو الدهب واسـتوقف تاكسي وانطلقا نحو منزل أمجد أولًا.. كانت الشوارع كعادتها عشوائية ومزدحمة.. أراد أبو الدهب أن يخرج أمجد من شـروده فصنع حوارًا مع سـائق التاكسي.. قال للسائق:

ـ كيف تعمل بشكل يومي في هذا الزحام يا أسطى؟

قال السائق يعاتب أبو الدهب:

ـ كما تحيا أنت في هذا التلوث.

ضحك أمجد مع أبو الدهب الذي قال:

ـ لولا أن الانتحار كُفر بالله لسار نصف هذا الشعب في جنازة النصف الآخر.

هرش السائق رأسه بعصبية وقال:

ـ أنـا تجـاوزت مـن السـن مـا جعلنـي أحيـا بالأدويـة وأحيانًـا المنشـطات ولكني في ثورة يناير كنت أعدو في الشـوارع كطفـل مشـاغب.. لـم تكـن ثورة شـباب فقـط.. أنـا أيضًا

وأصدقاء في نفس عمري شاركوا وكنا نتمنى أن يبدل الله حالنا ويغيره..

قاطعه أمجد:

ـ ولماذا لم تحقق الثورة حلمك في التغيير؟

نظر السائق في المرآة يستطلع وجه أمجد وقال:

ـ هل تعرف قصة أصحاب القرية يا أستاذ؟.. قرية من القرى في العصور القديمة وقت أن كان الله يبعث الأنبياء.. أرسل الله لهذه القرية نبيًا فكذبوه.. فأرسل الثاني وكذبوه ثم الثالث وأيضًا كذبوه.. لم يقفوا عند هذا الحد بل هددوا أنبياء الله وقالوا لهم صرنا نتشاءم منكم ولو لم تكفوا عن دعوتكم لقتلناكم رجمًا بالحجارة.. الموت رجمًا هو أصعب طريقة للموت.. رجلًا من القلائل الذين آمنوا بأنبياء الله كان في نفس سني تقريبًا وكان يحمل من الأمراض الكثير.. أخذ يخطب في أصحاب القرية ويدعوهم لتصديق الأنبياء.. أتعلم ماذا فعلوا أصحاب القرية به؟

رد أمجد:

ـ قتلوه.

نظر الرجل في المرآة من جديد وقال:

ـ نعم.. رجموه حتى الموت وصعدت روحه للجنة وعندما رأى نعيمها تمنى لو يعلم أصحاب القرية بالحقيقة..

قاطعه أمجد:

ـ ما علاقة أصحاب القرية بنا؟

ارتدى الرجل ثوب حكيم وقال:

ـ مصر بأهلها صارت تشبه القرية وأصحبها.. والشهداء قد

يكونوا أحفاد العجوز الذي مات وصعدت روحه إلى الجنة.

صمت الرجل وصمت الأصدقاء لثواني حتى يستوعبوا ثم قال أبو الدهب:

_ أنا وأنت شاركنا في الثورة.. أين نحن من قصة أصحاب القرية؟

لم يهتز الرجل ورد دون تفكير:

_ قلت لكم إن الأنبياء الثلاثة آمن بهم قلة من أصحاب القرية.. نحن ما تبقى من هذه القلة.. نعيش دائمًا في خوف ونخشى مصير جدنا الكبير مع أن مصيره في النهاية كان الجنة.. أثناء وبعد الثورة كنا على وشك إنجاز ما لم يحققه جدنا ولكن أصحاب القرية لم يدركوا الحقيقة وسرعان ما انقلبوا على الثورة وعلى الحقيقة وعلينا.. أنا وأنت عُدنا إلى خوفنا من جديد ومات الشجاع الذي فينا.. أتستطيع أن تصرخ الآن بالحقيقة؟.. إن تشجعت وفعلتها ستلحق بجدك العظيم.. ولكنك مثلي تخشى الموت.. إن كنت ترى في حديثي إهانة فلك مني نصيحة حتى لا يهينك أحد مجددًا.

قال أبو الدهب باهتمام:

_ ما النصيحة؟

قال الرجل:

_ لا تثير المسنين من أشقياء الدنيا.. بداخلنا هموم وشجون كالجبال.. أحمل لنا ما نحب.

تأثر أمجد وأبو الدهب ونطقوا في صوت واحد:

_ ماذا تحبون؟

قال الرجل بصوت مرح:

ـ المكيفات وأفلام الجنس.

ضحك أبو الدهب متعجبًا وقال أمجد ساخرًا:

ـ أهذا ما تحب حقًا؟

قل الرجل:

ـ كنت أعلم أنكم ستسخرون.. أنا لا أنتظر منكم شيئًا ولكن مثلي يريد دائمًا أن يتحرر من قبح أسراره.. يستفذني قدرتكم على الحصول ما أريده أنا متى شئتم.

قال أبو الدهب:

ـ ماذا تقصد؟

ـ أقصد أنكم تحصلون على المكيفات والأفلام الجنسية متى شئتم.. هذا هو السبب الحقيقي لصراع الأجيال الذي يتحدثون عنه.

عقب أمجد:

ـ أنا أحترمك لصراحتك وأنت على حق فنحن لو أردنا لحصلنا على الجنس متى شئنا ولدينا صديق ينتظرنا مع كل مساء بأجود أنواع الحشيش.. فهل تريد أن تتقاضى الأجرة أفلام جنسية وحشيش؟

ثار الرجل:

ـ لا يا جميل.. أنا أستطيع قتل نزواتي أمام متطلبات أسرتي.. هل لك أنت أن تمنحني حقي وإن شئت أن تمنحني قطعة حشيش أعتلي بها جبال البؤس والشجون فسيكون هذا كرمًا منك.

تدخل أبو الدهب:

ـ لك ما تريد أيها المسن.

قال أمجد:

ـ أمنحني رقمك حتى أهاتفك لأهاديك بالحشيش والجنس.

تشكك الرجل وقال:

ـ ولماذا لا تهاديني الآن؟

ـ لا نملك ما تحب الآن.. كنا رهن الاعتقال أنا وصديقي.. احتجزنا رجل من السلطة.. هو يحب الجنس والمكيفات والمنشطات أيضًا.. يحصل على ما يحب بجبروت لا تتخيله.. أما أنت..

صرخ الرجل:

ـ أنا لا شيء..

لا..

شيء.

* * *

كم من الأحلام تحمل طائرة أقلعت من مطار القاهرة باتجاه مطار جون إف كينيدي؟..

في الطائرة.. همس شاب مصري لنور:

ـ نيويورك هي قلب أمريكا.

خرجت نور من شرودها وابتسمت للشاب:

ـ أمريكا بلا قلب أيها الحالم.

كانت الطائرة تحلق فوق نيويورك والشاب ينظر إلى أحلامه في لهفة عله يراها.. قال لنور من جديد:

ـ أنظري لهذه الروعة.. إنها نيويورك.

سألته نور:

ـ هذه أول زيارة لك لنيويورك؟

رد الشاب وهو متعلق بالنافذة:

ـ نعم.

ـ ملي عينك بأقصى ما تتحمل.. نيويورك التي تراها الآن من الطائرة لن تجدها على الأرض.. أعلم كيف ستكون صدمتك عندما ترى الحقيقة.. انظر جيدًا.. غابة من ناطحات السحاب وزجاج يلمع وألمونيوم يخطف الأنظار وحديد لا يصدأ وأسمنت ناعم وأملس كجسد طفل.. كل هذا يخفي الحقيقة..

قال الشاب مقاطعًا:

ـ وما الحقيقة؟

قالت بصوت أم ونظرة جدة:

ـ أنا لا أخيفك.. ربما نكون قد ألتقينا في زحمة القاهرة دون موعد واجتمعنا في هذه الطائرة دون رغبة.. نجلس معًا

ودواخلنا متنازعة.. أنا لا أتمنى الهبوط وأنت تتعجله.. سأخبرك بما سيحدث لك في أول أيامك بنيويورك.. اللحظات الأولى سيدهشك مطار جون كينيدي وشبكة الطرق خارجه وستقف مشيدًا بعبقرية الهندسة وبينما أنت تتأمل ستفزعك يد خشنة ستحط على كتفك بقوة.. لا ترتعد أمام العملاق الأسود وأنت تواجهه.. سيطلب منك «سيجارة» وسيحصل على كل السجائر وسيطلب دولارين أو ثلاثة وسيحصل على عشرة وبعدها سيمنحك ابتسامة ويذهب.. هنا اللصوص قانعون وشاكرون إلى حد ما بعكس اللصوص في مصر.. فاللص في مصر قد يسرق وطنًا إن استطاع.. ستذهب إلى صديق أو إلى قريب لتقيم معه.. ستجده في أول أيامك سعيدًا بك ويمنحك الكثير من الابتسامات وبعد أيام سيتحول ويضيق بكما المكان إلى أن تحصل على عمل وتقاسمه الإيجار.. في نيويورك مكاتب عمل اذهب إليها وستحصل على وظيفة رجل أمن ولكنها لن توفر لك الكثير وستضطر للبحث عن عمل إضافي وستجده عن طريق نفس المكتب.. سيصيبك اليأس فلا تتعجل.. ستتسكع في الشوارع بلا هدف.. اجلس لتستريح.. استراحات الشوارع في نيويورك كثيرة ويقصدها الجميع وقد تجلس بجانب فتاة تظنها مسؤولة مهمة أو ذات شأن كبير والحقيقة إنها فتاة ليل.. مظهرها لا يمت بصلة لفتيات الليل اللاتي صادفتهن طوال حياتك.. إن سألتها ستخبرك بحقيقتها "call girl".. ستخبرك بفخر.. لا تتجعب عندما يقصدها الكثير وترفض وتتودد لك وعندها ستخبرها بحقيقتك وأنك لا تملك مالًا ولا تريد الجنس ومع ذلك لن تبتعد.. ستجد بداخلك شيئًا كانت تبحث عنه.. لا تكن صلبًا وعبر لها عن إعجابك وامنحها

قبلة مقابل شعورها الجميل نحوك وأنت بلا مال..

صمتت نور تستطلع مسيرة الرحلة وكانت الطائر تحتضن المدرج المعد لها وعندها أردفت:

_ يبدو أن رحلتنا وصلت لنهايتها يا رفيق.. واجه نيويورك بصبر وثقة ولا تكن ضعيفًا عندما يضيق بك الحال.. لا تفقد هويتك أيها المصري حتى لو طالت إقامتك بنيويورك ولا تخجل منها فهويتك هي مخلصك الوحيد وسط عبث القلوب الإسمنتية.. سأمنحك رقمًا للتواصل فقد تحتاجني..

منحت نور رقم تليفون للشاب المصري.. كان والدها يتصنع النوم وهو في الحقيقة كان يصغى للحوار الذي دار بين ابنته والشاب المصري.. كان يتعجب من نضوج نور التي تركت أمريكا من أربع سنوات طفلة بريئة لا تعلم عن الدنيا الكثير.. كانت ضعيفة أمام "رينا" صديقتها بشكل مخجل فماذا تعلمت في مصر.. سأل المهندس علي نفسه:

_ هل أخطأت بإجبارها على العودة؟

أخرجته نور من دهشته ومن حديثه الشخصي.. قالت:

_ هيا يا بابا.. أعلم حجم المعاناة التي سببتها لك.. أعرف كيف أعوضك عن هذا الإرهاق والتعب.

تفرس في ملامحها التي اكتست بروح الأنوثة:

_ قد أسابق الجاميكي «يوسين بولت» وأنتصر إذا كنتِ أنتِ الانتصار.

ابتسمت نور ابتسامة بدلت أجواء نيويورك البادرة:

_ لم أهجركم.. يوم خروجي من نيويورك كنت أعتقد أن عمري سيفنى في الترحال بحثًا عما أريد.. منحتني القاهرة

أكثـر ممـا أريـد في أسـبوع ولم تبخـل بالصديـق والحبيب والصفـاء والسـكون.. فـي أول أيامي كنت أتـذوق جمالها على استحياء خوفًا من ضجر قادم وملل يختبئ خلف جدران الطبيعـة ولكنهـا كانـت تتجـدد مـع كل فجر وتغتسـل.. عشـوائية كفنانيـن «برودواي» ومزدحمة بشـكل هندسـي عجيـب وفي الشـروق عروس خجـول ومع الظهيرة يتسـاقط منها عرق فلاح لا يبحث عن خلاص لشقائه وعصرها كعناق النيـل للبحر وفي المسـاء هي أنثى تقف أمام مرآة تتحسـس مفاتنها وسهراتها تملؤك بنشوة مخدر لا يقتل ولكنه إدمان.

دخلـت نـور نيويورك بعصبية وفتور.. لم تبحث عن الشـوارع ولم تتبين منزلها إلا وهي على أعتابه.. ابتسمت لأمها وذابت في حضنها وقبلـت شـقيقها الأمريكي ثم دخلـت غرفة طفولتها بعـد غياب.. قاتلت شجونها وداعبت وجه أمجد الجميل ونامت متدثرة بالدموع.. في نومها كانت تغرق في النيل وهي تبتسم..

الحريـة فـي نيويورك تسـمح لك بأن تحيـا كما تشـاء.. تحزن وتفـرح وقتمـا تريـد.. بعكـس قاهرتنا التـي تقتحم عليـك حزنك وفرحك دون أن تطرق أبوابك الهشة.. نيويورك وصلت لقمة المدنية والقاهـرة تحاول أن تبقى مدينـة كباقي المدن.. أينما كنت تحيا فمكانـك سـينحت ملامحك.. سـيحدد طباعك ويختار ملابسـك وطعامـك.. مكانـك ليـس مجرد عنوانـك وكفى.. أنـت تحيا هنا وهنا تمرض وتشفى.. وتحلم هنا حتى لو كنت تحلم بمكان آخر.. وإن تركت مكانك وذهب لآخر وعودت يومًا ستجد لك ذكريات لا تنتهي حتى وإن كانت مؤلمة..

بحثت نور في أول أيامها في نيويورك عن أثر عشـرين عامًا في المـكان فلم تجد إلا رينا.. صادفتهـا في حي "مانهاتن" فتجاهلتها

وحاولت الهروب في البداية ثم عادت وذهبت إليها لتثبت لنفسها شيئًا تتمناه وتقتل هاجسًا يراوضها أحيانًا.. وقفت نور خلفها ببلادة ونقرت على كتفها.. دارت رينا ثم صرخت في غضب:

ـ أيتها الخائنة.. في عروقك دم عربي يقتل ويدمر.

ضحكت نور واحتضنتها وهي تقول:

ـ وأنتِ دمائك إنجليزية باردة كالثلج.. أهذه المقابلة تليق بصداقتنا؟

ـ صرت أكرهك وألعنك ولن تكوني صديقة مرة أخرى.

ـ رفقًا يا رينا كان خروجي من نيويورك بسببك وخوفًا من العلاقة التي تورطنا فيها..

قالت رينا مقاطعة:

ـ لو كنت أدرك طبيعتك لفزعت منكِ ولم أكن لأتعرى أمامك.. هنا في «مانهاتن» سالت الدماء على يد أهلك الذين هربتِ إليهم.

أدركت نور مقصدها فعلى بعد أمتار كانت أحداث الحادي عشر من سبتمبر حيث برج التجارة الذي انهار وتلاشى.. قالت نور:

ـ لا تورطي نفسك في هذه الأمور الشائكة يا رينا.. أنتِ تتجني.

ـ صدى الانفجار أصاب نيويورك وأهلها بصمم حيث لم نعد نسمع لصوت العقل إلى أن خرجتي من نيويورك وفي الفراغ سكون وفي السكون صرخات عقلي أخبرتني بحقيقتك أيتها القاتلة.

ـ كل هذا بسبب غيابي؟

ـ بل بسبب خيانتك.. لماذا لم تعودي كما أخبرتني؟.. لماذا كذبتي وجعلتني أنتظرك؟.. لماذا هذا الجفاء من والدك

عندما ذهبت لأسأل عن موعد عودتك؟.. إذا كان بقاؤك في مصر بسببي فأنا تغيرت وصرت أصادق الرجال ولن أكون في حاجة لكِ بعد الآن.

صمتت رينا تتفرس في نور ثم أكملت:

ـ أنا تبدلت وأنتِ عودتي لقبيلتك لتضاجعي الإبل.. بداخلي شيء يدفعني للشفقة عليكِ.. اذهبي الآن يا نور.

ابتعدت نور خطوات وقبل أن تختفي عن أعين رينا سمعت هتاف رينا من جديد:

ـ يبدو أن غيابك غيرنا معًا يا نور.. النتيجة طيبة ولذلك سأسامحك.

عادت نور واحتضنت رينا من جديد وساروا معًا.. قالت رينا:

ـ لم تعودي كما ذهبتي.. كنت أسمع دقات قلبك من بعيد أين هي؟!

ـ آه يا رينا لو تعلمين.. تركت كل شيء في القاهرة وعدت جسدًا يتداعى ويتساقط كالأطلال.

ـ أهو هروب آخر؟

ـ القاهرة هي من هربت من تحت أقدامي.. أجبروني على الخروج يا رينا.. خرجت بلا وداع أو عناق.

ـ أنتِ أمريكية يا نور والعرب لا يعجبهم رؤيتنا في بلادنا فكيف يقبلون بنا في بلادهم.

ـ ليس الأمر كما تظني.. رؤيتك عن العرب ليست صائبة.

صمتت نور لحظات ثم عادت:

ـ قد تكون صائبة.. أنا أعرف سبب خروج أعداء الحياة ودعاة الموت من بلاد العرب.

ـ ما السبب؟

ـ السجون.. سجون مظلمة أسوارها من طين الظلم والجوع.

ـ هذه مشاكلهم ولا دخل لنا بها.. لماذا نموت نحن؟

ـ لعلمك يا رينا الظلم أصله أمريكي.. في القاهرة مثلًا سفارة أمريكية بها بعثة قد تكون الأكبر بين بعثات الدول الأجنبية وكل مهمتها اختيار الحاكم وحمايته فيظلم ويجوع شعبه ولا يبالي.. كل ما يشغله هو رضاء أمريكا وأمريكا لا يشغلها إلا مصالحها وكل هذا يصنع شعوب مظلومة ويخرج من بينهم من يبحث عن الانتقام وفي طريق الانتقام يصنع المظلوم ظلمًا هو الآخر ويصبح المظلوم ظالمًا والظالم مظلومًا.

ـ رفقًا يا نور.. ماذا فعلت بكِ القاهرة؟

ـ اتركي هذا الأمر الآن واخبريني عن حياتك الجديدة.

كانت رينا فتاة رائعة وفارق السن بينها وبين نور يظهر جليًا في مرحلة الشباب.. يوم الفتاة العشرينية دائمًا ما يترك أثرًا على جسدها.. ليس تحرشًا ولا هو علاقة مشبوهة ولكنه يومًا مشغول دائمًا بالتفاصيل وخبير بخبايا الفتيات.. صنع لوجهها لونًا بلا لون تعرفه فتظل تتأمله إلى أن تصيبك العيون الزرقاء بنظرة فتحاول الهرب في ثنايا جسدها القصير فتكتشف أن هروبك انتحار.. عندما صادفها شاب أمريكي وسيم وهي شاردة في جسد نور الغائبة لم يتوانَ لحظة في التودد إليها ، فاستطاع بعد عناء من قتل مثليتها وأعادها إلى فطرتها التي خلقت عليها.

في حديقة "سنترال بارك" جلست رينا تحكي ورائحة الورود تفوح منها:

ـ انظري يا نور لهؤلاء الشباب «أشارت لمجموعة من الشباب

بـزي فلـوري يلفـت البصـر» هـؤلاء متطوعـون يعملـون على إسـعاف زوار الحديقـة.. أعـرف معظمهم وأعمـل معهم يومًا كل أسـبوع.. تغيـرتُ كثيـرًا فـي غيابـك وصـرت أجالـس الـورود وأعتني بهـا.. «آدم» هو أول من أدخلنـي هذه الحديقة كمـا يجـب أن أدخـل.. قال لي مـرة «لو كان مـن الممكن أن تصيـري وردة لكنـتِ الأغلى والأجمـل» وذات يوم كانت الكاميرات تشـغل المكان من أجل تصوير فيلم سـينمائي وكنت أنا وآدم هنا وطلب المخرج ظهوري في المشهد الذي جـاء مـن أجله.. تـرددت كثيرًا ولولا تشـجيع آدم مـا قبلت.. تغيرت حياتي وصارت أجمل وأروع..

لاحظت رينا غياب نور وحزنها.. همست:

ـ ما بكِ يا نور؟

ـ التاريـخ يكبـر.. يتراكـم فـي الكُتـب.. والعقـول تصغـر وتتجاهـل هـذه الكُتـب.. لـو يدركون كيـف كان مصير الظالميـن لكفوا وعدلوا عن ظلمهم.. في القاهرة رجل حول حياتي بعدما استقرت واستكانت.

ـ من هذا الرجل؟

ـ إنه مسؤول كبير ويمتلك سلطة لا حدود لها.

ـ ماذا تركتي في القاهرة؟

ـ حبيب وصديق ومدينة من الذكريات.

ـ ماذا ستفعلي الآن؟

ـ سـأعود حتمًـا.. لا أعرف كيف؟.. ولا أعـرف متى؟.. ولا أعرف مدى بعدي عن القاهرة؟.. في المنفى أمل يروى بالصبر والدموع..

* * *

مـع الوقـت سـتدرك أن الثواني زمن والسـاعات عصـور والأيام حيـوات وأن ما كان يمر عليـك خفيفًا هينًا أصبح يدميك ويعذبك وأن الشـيء الـذي كان يجعلـك عظيـم فـي عين نفسـك هـو ذاته الشيء الذي يخجلك من نفسك.. ازدحام بداخلك يجعلك تهرب في طـرق لـم تسـير فيها من قبـل.. قد تختـار طريق الغيـاب بمخدر أو كُحـل وعندما تحضر من جديد سـتجرب طريق آخر.. تغرق حتى سـمائك فـي دائرة لا تنتهـي إلى أن تمـر ليلًا بطريـق موحش.. في هذا الطريق إن لم تجد من يهتم لأمرك سيكون طريق النهاية ولن تعـود.. قـد يكون الخلاص في صديق علم ما بداخلك فانشـغل به ودلك على الطريق وإن رفضت سـيجبرك وإن أجبرك فإنه يخيرك بيـن الحياة هنا أو الحياة هنـاك لا بين الموت هنا أو الموت هناك.. جميـع القلـوب تعـرف الكراهية إلا قلـب الأم وقلـب الصديق وإن ماتـت أمك فعوضهـا بصديق وإن غاب الصديـق فأنت بائس بكل مـا تحمـل الكلمة من معنى.. يقولون إن هنـاك أكثر من 30% من البشـر يخشـون موت من يحبون أكثر من خشـيتهم من الموت هم أنفسهم.. هؤلاء هم الأمهات والأصدقاء.. إن لم تؤمن بهذا فأنت بلا صديق وأن الذين يجالسونك شيئًا آخر..

قال أمجد:

ـ في حياة كل إنسـان هناك لحظـة لا يعود فيها كما كان.. هذا المركب الصغير شاهد على اعترف إسلام وسمر ومن قبلهم نور.

رد إسلام:

ـ أين ضحكتك يا أمجد؟

ـ يبدو أنني أفرطت فيما مضى.

قالت سمر:

ـ لا تنسَ تجارب من حولك ومنها تعلم.

ـ تعلمت إنه إذا كانت حياتك تحمل كل هذا العبث فأنت في حاجة ماسة لمركب يشق النيل دون هدف.. يحمل الحشيش والكُحل.

قال أبو الدهب:

ـ إذا كان لا بد أن ندفع من أعمارنا فلندفع بغضب ولا نستسلم.. أنسيت ماذا تركنا خلفنا في زنزانة الدمياطي؟.. أنسيت وعدنا له؟.. ماذا دفعت مقابل ما دفع؟.. اصمد وجفف دموع قلبك وبدل لين عزيمتك بساعد صديقك.. أنا معك وإن كانت كل الدنيا ضدك ولن ننتصر إلا إذا رغبت أنت الانتصار..

صرخ أمجد:

ـ أنا أرغب وأنت تعلم.

ـ نعم أعلم ولكن رغبتك يا أمجد تغفو أحيانًا وكلامك أكبر دليل.. لا تنسى أن حبيبتك على قيد الحياة.. منفية إلى بلاد ليست بلادها.. تنتظر فارسها وفارسها إلى الآن بلا جواد.

قال أمجد في ضجر:

ـ ماذا يجب أن أفعل يا صديقي.

أشعل أبو الدهب سيجارة بعصبية.. قال:

ـ بل قُل ماذا يجب علينا أن نفعل.. أنا وأنت وإسلام وسمر.. نتعاهد من أجل أن ننتقم لأنفسنا.. من أجل أن تعود نور ونخرج هاني ونثأر له.

بعد صراع مع النفس قرر أبو الدهب إشراك سمر في معركتهم..

كان من الممكن أن تعاونهم دون أن يخبرها عن شقيقها ولكنه أراد أن يدخلها جحيم يجعلها تحارب بأقصى ما استطاعت من حياة.. عندما نطق باسم هاني لم يتنبه إلا أمجد في البداية فنظر إلى سمر مراقبًا.. عندما سمعت سمر اسم هاني توترت وسقطت كلمة من طرف لسانها:

ـ من هاني؟

ردد إسلام:

ـ نعم.. من هاني؟

أجب أبو الدهب بشجاعة:

ـ شقيقك يا سمر.

فزعت:

ـ أين هو ومن أين سنخرجه ولماذا نثأر له؟

تدخل أمجد:

ـ في ظلام الزنزانة صادفنا شاب جاء منذ ثلاث سنوات من أجل شقيقته وفي المطار استقبلته القاهرة بقسوة.

صرخت سمر:

ـ أين هاني يا أبو الدهب؟

ـ هو بخير وسنخرجه قريبًا.. سمير الدمياطي يحتجزه وشقيقك لم يبخل عليكِ يومًا وعندما شعر بحزنك ترك في الغربة زوجة وأولادًا وجاء من أجلك.. هو الآن ينتظرنا ولا بد أن نفكر بهدوء من الآن ولا نضيع الوقت.

لا صراخ ولا دموع ولا نحيب بل تجلد.. قالت سمر:

ـ في الوقت الذي كنت أسلم الدمياطي نفسي كان أخي في سجونه.. ماذا فعلت؟.. وماذا أفعل؟.. لن أتحمل هذا ولن

أستطيع التفكير.. أريد أن أتبخر وأصبح عدمًا.. أريد الموت الآن قبل غد..

قاطعها إسلام:

ـ شقيقكِ في السجن من أجل حياة تسعدك لا من أجل موت يغيبك.

ظلت على تجلدها:

ـ هذه الحياة لا تحب أن ترنا سعداء.. منذ أن أصبحنا نميز الفرق بين الحزن والفرح وأنا وأخي لا نعرف إلا الحزن والظلم.. مهما حملت لنا الحياة من سعادة فلن تعوضنا ما فقدناه وما عانيناه..

نظرت لأبو الدهب وأردفت:

ـ أخي كان جميلًا بجسد يتمناه الشباب وروح تجذب الجميع.. أخبرني كيف صار يا أبو الدهب؟.. ماذا أخبرك عني وعن زوجته وأولاده؟

أجاب أبو الدهب بدهاء:

ـ يبدو أنكِ لا تعرفينه جيدًا.. ما رأينا غير رجل صلب تعرض لجبروت وظلم لا يتحمله بشر ومع ذلك ظل بجسده وروحه.. تفنن في رسم وجهك على جدار الزنزانة وخط أسماء أسرته.. له ولدين هم مصطفى وسمر.

تنهدت سمر في شجن:

ـ آه.. لم ينسَ هاني في غربته والده الذي رحل ونحن في مقتبل العمر فأطلق اسمه على طفله وسمى بنته باسمي.. أنا معكم قبل أن أعرف بأمر هاني ومعكم بأقصى ما أتحمل بعدما عرفت.. لكن لماذا تنشغلوا بأمري وأمر أخي؟

رد أمجد:

ـ أنت من انشغلتِ بأمرنا في البداية.. قلت أنكِ أقرب إلينا من الدمياطي وحاولتِ إبعادنا عن طريقه.. صرنا أصدقاء وصار مصاب شقيقك جزءًا من مصائبنا ولن نتركه كما وعدناه.

تحسس إسلام بؤس سمر وقال:

ـ ليس غير الألم العظيم يجعلك إنسانًا عظيمًا.. شقيقك عظيم بما عاناه ويعانيه.. وأنتِ يا سمر كذلك وشعورك بالذنب ليس في محله.

وقف أبو الدهب في مواجهة الأصدقاء الثلاثة وقال بحزم:

ـ جففوا دموعكم الآن.. الآن سنبدأ أولى خطواتنا تجاه الدمياطي.. من أجل نور.. من أجل هاني.. من أجلنا.. سنتسلل في حياة الرجل كالورم الخبيث.. أنا سأعمل مع الرجل بشكل مكشوف وسمر في الخفاء.. أمجد وإسلام سيدعموننا حتمًا بشكل مباشر وغير مباشر وعلى أمجد من الآن أن يتواصل بشكل دائم مع نور حتى تعود..

أمجد مقاطعًا:

ـ ما هي الخطة؟

ـ سنحاوط الرجل دون أن يدري.. أخبرنا الآن عن نور؟

أمسك أمجد تليفونه وهو يقول:

ـ بعد أن تركنا الدمياطي وعدت للبيت وجدت رسالة منها عن طريق «واتساب».. تقول في الرسالة:

«أمجد عندما تقع عيناك على حروف هذه الرسالة ستكون حرًا أما أنا سأكون سجينة المنفى.. أيها الوسيم أعرف شعورك نحوي جيدًا.. أعرف مدى شغفك وحجم حبك وأريد منك أن تعرف

شعوري نحوك.. سأعترف وكنت أتمنى أن يسبق اعترافي قبلة ويتبعه حضن على سطح مركب في قلب النيل.. أنا يا أمجد أحبك وما عذبني في الخروج من القاهرة إلا أنت.. سأعود حتمًا لترى كبريائي وقد ذلٍ وغروري وقد تصاغر.. لا تحزن فسوف أعود ولا تمل وأبقى كما تركتك الفتى الوسيم الذي تحسس جسدي دون قصد فخجل.. أحمل في حقائب ذاكرتي ما يكفيني في غربتي.. ضحكتك الدافئة التي ستزيل برد نيويورك وصوتك الهادئ سيكون رفيقًا دائمًا.. ابتسم دائمًا لأجلي ولا تكتئب وتبخل على عالمنا بصوتك..

وختامًا سلامًا عليك وأنت تبتسم وأنت تحلم وأنت تتحسس النجوم وتداعب القمر وسلامًا للمهندس أبو الدهب وأخبره أنني تعلمت منه الكثير وسأفتقده كثيرًا وسلامًا لفريق الأشقياء.. أخبر الشاب إسلام أنني سأتذكره دومًا بحب ولسمر سلام يليق بفتاة في مثل روعتها.

صمت أمجد ونظر للأصدقاء الثلاثة وهو يبتسم أمام بريق عيونهم ثم قال وهو ينظر للتليفون من جديد:

ـ عانيت كثيرًا وأنا أكتب لها.. كانت حروفي صغيرة جدًا أمام حروفها حتى كتبت لها أقول:

«حبيبتي نور.. لست حرًا فأنا أثير غيابكِ وسجين أي براح لا يحتويكِ.. أما عن اعترافك فلست بحاجة له بقدر حجاتي لرؤيتيك بجانبي لأنطق بكلمات الحب التي تدغدغ كبريائك وغرورك.. عندما تعودين سأعد لكِ المدينة التي تحبين.. المركب غريب في نيلنا العظيم يا نور..

وختامًا سيسعد الأصدقاء بسلامك ولتعلمي أننا جميعًا سنمد الجسور التي تعود بكِ إلى بلدك مصر.

صمت أمجد وقال أبو الدهب:

ـ تمام.. تواصل معها بشكل يومي وحثها على حمل جواز سفرها بشكل دائم..

ثم التفت لسمر:

ـ وأنت يا سمر.. ماذا عن علاقتك بالدمياطي؟

هتف إسلام:

ـ انتهت العلاقة ولن تعود يا أبو الدهب.

قال أبو الدهب ساخرًا:

ـ لتصمت إلى أن أسمح لك بالحديث.. أنا من سيقرر وما عليكم إلا الطاعة ولتمنحوني الآن الثقة، وهذا لا يمنع أن نتشاور ولكن ليس الآن.

صرخ أبو الدهب صرخة أفزعت سمر:

ـ لم تجيبني يا سمر.

قالت سمر وهي تنظر لإسلام الغاضب:

ـ أغلقت تليفوني وانقطع الاتصال.

ـ بعد دقائق ستتصلين بالدمياطي وتعتذري عن غيابك الذي كان لمرض آلم بكِ.. تصنعي الدلال وحدثيه عن لهفتك لرؤيته.

قال إسلام بنفاذ صبر:

ـ وماذا بعد؟

ابتسم له أبو الدهب وقال وهو يشير لإمبابة فوق النيل:

ـ نحن أبناء إمبابة وتجمعنا حارة علمتنا أن الموت لأجل شرف فتاة لهو الموت البطولي والخلود الذي لا يعرف فناء.. انتظر

يا صديقي.

ثم التفت لسمر من جديد وهو يخرج من جيبه شيئًا:

ـ سمر.. هذه أقراص مخدر بقوة نبيذ معتق منذ القرون الوسطى.. اخبري الدمياطي أنها منشط جنسي ستبدل ضعفه.. قرصًا واحدًا سيجعله ينتشي ويغيب ويفشي أسراره وما عليكِ إلا التسجيل بكاميرا الموبايل ولا تخشيه.. سيكون في عالم البوح وعندما يعود من غيابه الذي لن يتجاوز ساعة على الأكثر اخبريه أن شبابه عاد إليه وأنكِ كنتِ في أحضان فارس قوي وهذا سيسعده كثيرًا.. نحتاج منكِ أرشيفًا كاملاً لكل جرائمه وليلة واحدة لا تكفي.. أمجد سيتسلم منكِ التسجيلات ويحتفظ بها.. هل أنتِ مستعدة يا سمر لهذه المهمة؟

قالت سمر وهي تبتسم لإسلام:

ـ هذه المهمة سأقوم بها على أكمل وجه.

التفت أبو الدهب هذه المرة لإسلام:

ـ هل هذا يغضبك يا صديقي؟

قال إسلام في خجل:

ـ لا.. أنا لا أشك في قدرك على تنفيذ ما نتطلع إليه دون أن نتنازل مرة أخرى.. والآن أخبرني بمهمتي.. أتطلع لدوري في هذه الخطة.

ـ هل منحتني سيجارة أولاً؟

ـ لك ما تشاء.. أنا أحمل الحشيش الذي يعجبك.

تناول أبو الدهب سيجارة وأشعلها بتأمل ثم أردف:

ـ يا إسلام حدثنا عن الانتقام.. عن عذاب الظالم على يد

المظلوم.. حدثنا عن ركد الدم في عروقك وأنت تسعى نحو قاتلك.. وأنت مثقل بأحلام أُجلت وأمنيات توارت خلف ستار الانتقام.. حدثنا وامنحنا الطاقة لنواصل.

قال إسلام الخبير بعالم الانتقام:

ـ انصتوا جيدًا.. بداخلكم الآن صوت كهزيم الرعد.. إنه صوت الظلم ولن يخبو إلا أمام صوت خافت من سكين وهو يفتش في جسد الظالم عن اللاشيء.. وأنت في طريقك للانتقام سيخبرونك عن العفو والحكمة أخبرهم أن العفو والحكمة كالـ"ياتوبيا" خارج نطاق الدنيا.. قبل أن تنتقم أنت تستعمل جزءًا صغيرًا من عقلك وفي خضم انتقامك لا بد أن يعمل عقلك بأقصى ما يتحمل.. التفاصيل الصغيرة إشارات تنخر القلاع الكبيرة كنخر السوس لعصا سليمان.. احتفل مع كل انتصار يتحقق واغتسل بالعرق ولا تثير أحلامك البريئة حتى لا تعاني.. لا تجالس الأطفال ولا تتودد لأمك في ليالي الشتاء كي لا تضعف.

عادت لأمجد ضحكته وقال:

ـ أنت مدمر يا إسلام.. أحذرك يا سمر.. لا تتورطي في حب هذا الشاب.

قالت سمر بابتسامة:

ـ سنصير مثله غدًا وسننجب للدنيا أشقياء.

قال أبو الدهب مداعبًا إسلام:

ـ صدق أمجد.. حقًا أنت مدمر بقدر جمال أسماء «الحبيبة الأولى».

قالت سمر بعصبية:

ـ ما الداعي لذكر الماضي يا أبو الدهب؟

تدخل إسلام:

ـ أنا أعرف مقصدك يا أبو الدهب.. أنت تريد أن تنتصر للحب وتعتقد أن حبي القديم هو من قادني للانتقام.

قال أبو الدهب:

ـ أود أن أخبركم أن خلف هذا المدمر قصة عشق تتحاكى بها حارتنا.

أشعل أمجد سيجارة وتذكر نور.. قال:

ـ هكذا يصبح الحب في قفص الاتهام وما انتصرت له يا أبو الدهب.

قال أبو الدهب:

ـ هذه نظرة متجنية يا عاشق الجمال المزدوج الجنسية.. كل قصص الحب التي حفظتها الكتب وصارت أساطير ظُلمت بعنف وأبطالها نوعان.. الأول انتقم وانتصر لحبه والثاني قُتل أو انتحر.. لأي نوع تنتمي أو تود أن تنتمي؟

قال أمجد باهتمام:

ـ النوع الثاني ضعيف ولو استطاع الانتقام لانتقم..

قاطعه أبو الدهب:

ـ الحب رسالة كرسالات السماء ويحتاج لأنبياء وأبطال خارقين والذي انتصر بعد أن انتقم يستحق الحبيبة والذي هُزم مات على أمل لقاء الحبيبة على عتبات الجنة.

قال أمجد:

ـ أتمنى أن أنتصر وأهنأ بنور.

قال أبو الدهب:

ـ إذاً هذه رسالة فلتحملها بقوة.

نطق إسلام:

ـ وأنا يا أبو الدهب من أي نوع؟

أجابه:

ـ النوع الأول.. انتقمت وانتصرت.

سألت سمر:

ـ كيف؟.. وأين حبيبته؟

قال أبو الدهب بلا تردد:

ـ أنت.

ـ أنا؟!

ـ نعم ليس الحب فتاة بعينها إن وجدت وجد الحب وأن غابت غاب الحب.. بل هو شيء معقد بداخلنا قد نملكه وقد لا نملكه وإسلام يملكه.

* * *

لــم تنسَ ســمر نصيحــة أبو الدهب.. «كبســولة واحــدة تكفي لليلــة واحدة».. ولم تغفـل عن نصيحة إســلام.. "التفاصيل الصغيرة تهـدم القلاع الكبيـرة".. تجاهلت نصيحة أمجـد.. "لا تتورطي في حب الشــاب المدمر".. هاتفت الدمياطي وتصنعت الدلال وأظهرت اللهفة فلم يتوانَ الرجل ومنحها موعدًا..

الإنســان الطبيعي يأتيه في اليوم 70 ألف فكرة أو أكثر.. في الحيــاة العاديــة لــن تحتاج أكثر مــن فكرة أو اثنتيــن أو ثلاث أما إذا كانــت حياتــك حرفيًا مشــحونة، فقــد تكون فــي حاجة إلى الكثيــر وعندهــا لا بــد من تنظيم هــذه الأفكار وما عليك ســوى إظهــار التحدي وكبــح جماح عواطفــك والتركيز فــي نومك من أجل يقظتك.. لو اســتطعت العدو بســيارة في طريق مهمل ومزدحم بسرعة جنونية بحرفية فأنت منظم الأفكار.. متحدٍ.. متبلد.. تغرق في فنجال قهوة.. منحك النوم راحة فأجدت اليقظة..

الأنثــى مخلــوق يجيد كل المهــارات إن أراد.. في رقتها عنفوان قاتــل وفي انتقامها لين الجســد ورائحة الشــعر الثائر.. حين حملت المرأة الســلاح مات الرجل بلا تردد.. عندما التحقت الفتاة الحسناء "لودميــلا بافيلتشــينكو" بالفرقــة 25 مشــاة بالجيــش الســوفيتي قنصــت 310 من الجنود الألمان وهي في عامها الرابع والعشــرين.. بأنامل ناعمة كانت تقبض على سلاح يرتشف من عرقها فيسكر ويستكين.. لن يعود ضحايا بافلتشينكو ليخبرونا بحقيقة الموت قنصًا على يد فتاة حسناء ولكنها قد تكون طريقة جميلة للموت إن كان للموت جمال..

في محيط قصر البارون كان محرك ســيارة ســمر يستريح من جنون البزين المحترق.. كانت سمر تنتظر سمير الدمياطي إلى أن

جاء برفقة حرســه.. في القصر كان الدمياطي مرتبك وخائف من تكرار فشله فمنحته سمر الكبسولة وهي تقول:

ـ اليوم ستحصل على الجنس كما لم تحصل عليه من قبل.

تناول الكبسولة دون نقاش فالوضع أصبح مخجل وأراد الرجل أن يمــر الأمــر ســريعًا وســريعًا كان الرجل كالكتــاب المفتوح بلسان ثقيل.. قال:

ـ كنــت طفــلًا خجــول وشــابًا حالــم وأصبحت رجــلًا لا يمت لطفولته ولا لشبابه بصلة.

قالت سمر بعد أن ثبتت الكاميرا في وجهه:

ـ حدثني عن جبروتك.

ـ ليس جبروت.. إنه طموح وســعي للمنصب وأيضًا حفاظًا على الدولة.

ـ هل قتلت؟

ـ قتلــت من أجــل أن تبقــى الدولة ومن أجــل رجــال الدولة وأنا واحد منهم.

ـ كيف؟

ـ هل سمعتي عن "رضا هلال"؟

ـ من هو؟

ـ هــو صحفي مختفي منذ عــام 2003م.. لغز كبير وتكهنات من الجميع وأنا وقليل معي يعلم بالحقيقة.

ـ ما الحقيقة؟

ـ لــن يظهر من جديد.. لقــد فارق الدنيا.. أرســلناه للآخرة دون تفكير.. قُتل ودفن بلا جنازة أو عزاء.

ـ لماذا!؟

ـ كان يعلم الكثير من الأسرار عن أكبر رؤوس الدولة وباح بسر من هذه الأسرار فكان لا بد من قتل الأسرار بداخلة.

ـ أين دُفن؟

ـ تعددت القبور وصارت بلا هوية فالموت هو أحد جنودنا وباطن الأرض مقبرتنا الكبيرة.

ـ ألم تندم يومًا على هذه الجريمة؟

ـ لا.. لقد استراح وموته أفضل من جحيمنا بكثير.. في سجوننا معذبون يتمنون الموت.

ـ بماذا باح تحديدًا؟

ـ ذات ليلة تحدث أمام أحد رجالنا عن ثورة ابن رئيس الجمهورية الأسبق وعن علاقاته برجال أعمال يهود.

ـ ألم تخشوا عواقب جريمتكم؟

ـ كنا وما زلنا فوق كل شيء.. فمن نخشى؟

ـ أنت فخور بما أجرمت؟

ـ أنا تاريخ الظلم في هذا البلد.

ـ هل هذا يدعو للفخر؟

ـ ربما.

ـ من غير رضا هلال؟

ـ قاضي يدعى «أحمد عزت العشماوي».. هذا الرجل قُتل أمام الجميع ولم تستطع أسرته فضح حقيقة أمر وفاته.. كان قاضيًا عادلاً وهذا لا يعجبنا.. نحب القاضي المطيع وكل هذا من أجل الدولة ورجالها.

ـ ما هي القضية التي تسببت في قتله؟

ـ قضية الدم الملوث «هايدلينا» التي تورط فيها كثير من رجال الدولة.

ـ كيف قُتل؟

ـ لا أتذكر ولكن ما أتذكره أن القضية انتهت بعد وفاته وصارت عدمًا.

ـ ما هي موصفات القاضي الذي يعجبكم؟

ـ قلت لكِ.. القاضي المطيع الذي يحكم من أجل الدولة ورجالها.

ـ لا أجيد السياسة ولكن الدولة وسيلة من أجل مجتمع عادل والقوانين والقضاء أداة من أجل ذلك على ما أعتقد.

ـ هذه الدولة المثالية لا توجد في عالمنا.. أخبريني عنها إن كنتِ تعلمين؟

ـ أنا لا أعلم.. يكفي ما تعلمه أنت.

ـ ظلمنا وعدلنا كان من أجل الدولة.

ـ كيف يموت الشعب من أجل الدولة.. لماذا الدولة إذًا؟

ـ هذه أمور تستعصى عليكِ.. يكفي أن تعلمي أننا راضون عن أنفسنا ولا نخاف الآخرة..

***

في المركب كان أبو الدهب وأمجد وإسلام في انتظار سمر التي هاتفتهم وهي في الطريق لكورنيش إمبابة.. أخبرتهم أنها نفذت مهمتها ونجحت.. وفي أثناء تلهفهم لقدومها قال أبو الدهب:

ـ نجاح سمر يدفعنا ويشجعنا.

قال أمجد:

ـ أنت يا أبو الدهب من خلصتنا من يد الدمياطي.. بعد خروجنا وعندما اكتشفت غياب نور لو لم تكن بجانبي لما تعلقت بالأمل.. اكتشفت أن الحب يحتاج أن نحارب من أجله وإعلان الحرب يحتاج إلى قائد وجيش.. أنت لم تنشغل بنفسك.. قبلت العمل مع رجل ثورت ضده من أجل ألا يمس نور.. وعند خروجنا لم تتحمل أن ترى دموعي فطلبت مني أن أثق بك وأنك لن تسمح لأحد أن يفسد حياتنا.. عندها تمنيت أن أكون محاربًا عظيمًا وسط جيش يليق بك أيها القائد العظيم.. أعلم ما يدور بداخلك.. أنت لن تترك هاني وستُهمل حياتك وأحلامك وسيصبح هو كل ما تحيا من أجله.. هذا عن هاني الذي لم يكن يمت لك بصلة.. فماذا عني؟!.. هذا لم أستطع أن أتخيله.. من ليس له صديق مثلك لا يعلم الكثير عن الصداقة.

ضم أبو الدهب أمجد بلين وهو يقول:

ـ أنا القائد إلى أن يخرج هاني وتعود نور وننتقم للجميع.. وأنتم الجنود ولكي أكون قائدًا يستحق روعتكم وجمالكم سأكون أول من يضحي وآخر من يحتفل بالانتصار.

كان إسلام يتابع أمجد وأبو الدهب بفخر.. قال:

ـ أنا أفخر لأني صديق لكما.

قال أمجد وهو يضحك:

ـ أصمت يا تاجر المخدرات.. ماذا فعلت في غيابنا.

ضحك أبو الدهب هو الآخر:

ـ كان يغرق في فتنة سمر..

قاطعه إسلام:

ـ لم أرَ جمالاً مثل هذا من قبل.. لقد غرقت بالفعل في فتنتها وليس لي خلاص.. ألا تعلمون بما كان داخلي وهي مع هذا الرجل.. أنا وسمر تذوقنا مرارة الظلم وصار كلّ منا يتوجع للآخر بلا ضجر..

قاطعة أبو الدهب وهو يؤشر بذراعه نحو إمبابة:

ـ إمبابة لم ترَ منك غير قصص العشق يا إسلام.. كيف هو قلبك يا تاجر المخدرات؟

قبل أن يتكلم إسلام عن قلبه كانت سمر تطل بوجهها الجميل وجسدها الذي يشهد له الجميع وعيونهم تحتفل لرؤيتها.. نظر إليها أمجد وقال:

ـ قبلك يا إسلام لا يفارق هذه الفاتنة.

اقتربت سمر أكثر وقالت:

ـ أخباركم؟

رد أبو الدهب وأمجد ولم ينطق إسلام فقالت سمر وهي تدرك أن إسلام في حاجة لسؤل من نوع آخر:

ـ طمني عليك يا إسلام؟

عندها نطق.. جلست سمر وأخرجت الموبايل الذي سجل اعترافات الدمياطي.. منحته لأبو الدهب وهي تقول:

ـ أشعر أن به اعترافات مثيرة.

جلسوا في مربع ينصتون للتسجيل باهتمام وعندما أفرغوا قال أبو الدهب:

ـ تستحقي قبلة من أجل هذا.. فمن تختاري من بين ثلاثة شباب يشهدون لك بالروعة؟

قالت في ريبة:

ـ حقًا؟

قال أبو الدهب:

ـ أجاد الرجل في اختيار الجرائم التي تؤكد مدى جبروته.. هذه القضايا مر عليها سنوات وما زالت تشغل الرأي العام.. لم أحلم بأكثر من ذلك..

قاطعته سمر:

ـ إسلام.. اختار إسلام.

قال إسلام بخجل:

ـ هل استحق؟.. كنت أتمنى أن يكون لي دور في هذا.

تعجلت سمر:

ـ أبو الدهب أخبرني عن المطلوب مني وأعطاني المخدر فقط.. أنت من أخبرني كيف أفعل ذلك.. لا تستهين بنفسك أمام فتاة تراك دونًا عن رجال الدنيا.

تدخل أبو الدهب:

ـ انتظر يا إسلام ولا تتعجل.. ما فعلته سمر الليلة يستحق أن نحتفل بها.. هل واجهتي أي عقبات يا سمر؟

ـ عندما شعرت بقرب انتهاء مفعول الكبسولة تعريت وعريت الرجل ثم التصقت به.. عاد إلى وعيه وأنا في أحضانه.. أخذت أثني عليه وأتغنى بفحولته فأعجبه هذا وصدقه بفخر.

قال أبو الدهب:

ـ قبل أن أتشكك في صدق الدمياطي وعزمه على مهاتفتي من أجل العمل معه.. تلقيت مكالمته اليوم وسنلتقي غدًا في فندق كبير.. لا أعلم إلى الأن طبيعة هذا العمل.. غدًا سأخبركم بكامل خطتنا وعندها نتناقش ونقترح ونرفض ونقبل..

نظر أبو الدهب لأمجد وأكمل:

ـ أرسل مقطع الفيديو إلى «اللاب توب» واحذف الفيديو القديم.

دُهش أمجد وسأل أبو الدهب:

ـ كيف علمت أنني ما زلت أحتفظ به؟

ـ أنت شجاع ولم يخيفك حديث سمر عن الدمياطي.

نظر أمجد لسمر في خجل:

ـ لم أفكر لحظة في استخدام هذا الفيديو من أجل فضح هذا الحيوان.. أنتِ يا سمر لا تستحقي هذا.. لا بد أن أعتذر لكِ.

ـ لا تعتذر..

انشغل أمجد في إرسال الفيديو وأبو الدهب معه.. اقتربت سمر من إسلام وهمست:

ـ لست مجبرًا على تحمل كل هذا.. أنا فتاة كان يستغلني رجل من أجل إطفاء شهوته.. لو لم تقبلني لن يلومك أحد.. لا أريد أن أرى خجلك أمام أصدقائك مجددًا..

قاطعها إسلام وضمها:

ـ إن كنتِ شيئًا مختلفًا عن "غادة الكاميليا" فأنا لم أكن يومًا ابن العائلة الذي أحبها ولكني قد أكون وريث عشقه.. لا بد أن أخجل على الأقل أمام أصدقائي.. الماضي لا يجب

أن تتحمليه وحدك.

نظرت إليه نظرتها المرحة وقالت:

ـ لماذا لم تقبلني إذًا؟

قبلها وهو محموم من سحر ابتسامتها.. ثم قال:

ـ أبو الدهب يقول إن إمبابة لم ترَ مني إلا قصص العشق وأمجد يقول إن قلبي لا يفارقك..

ـ وماذا بعد؟

ـ أردت أن أخبرك عن مدى حبي.. أصدقائي صادقون.

قالت سمر وهي تنظر في عيونه:

ـ يا لحظي.. ما كنت أعلم أن الدنيا ستمنحني حظي من السعادة هكذا.. أراك كافيًا وما رأيته قبلك وما رأيته بعدك يهون ويصغر أمامك.

وقف أبو الدهب في وسط المركب وصرخ:

ـ يا لحظي أنا الآخر.. القائد.. أحارب بمجموعة جنود من العشاق.. سننتصر بسيف عنترة ونحتفل عند قبر جيفارا.. أليس من حقي أن أعترف أنا الآخر؟

قال إسلام:

ـ أيها القائد العظيم.. نحن منصتون.

قال أمجد:

ـ يا لها من لحظة!

قالت سمر:

ـ اعترف يا قائد.

قال أبو الدهب:

ـ تعجبني رسائل نور ويعجبني قلب إسلام.. أنا محظوظ بكم.. أحيانًا أجلس لأنسخ بعض كلماتكم فلا أستطيع..

قاطعت سمر أبو الدهب بأدب:

ـ أيها القائد ألا يليق بالقادة أمثالك أن يتورطوا في حب فتاة؟

تنبه أبو الدهب أنه ورط نفسه.. قال دون أن يبدي تأثيرًا:

ـ الجميلات أمثالك لا يستعصى عليهم أحد.. وهل هناك قائد أعظم من "نابليون بونابرت".. كان يكتب من قلب المعارك لزوجته "جوزفين".. كان يخاطبها بالصديقة والمعشوقة.. يقتل الآلاف وهو يدعو ويتضرع لربه من أجل أن تشفى "جوزفين" من مرضها.. كان يتغزل في مداعبتها وفي دموعها وفي حنانها..

صمت ثواني ثم أردف:

ـ إلى الآن يا سمر كل تجاربي لا ترقى أن أقصها أمامكم.. أنا أرى عشاق وأنا معكم أبدي إعجابي فقط وهذا يسعدني.

سأله أمجد:

ـ ما الذي أعجبك في رسائل نور؟

ـ أنت محظوظ بفتاة ناضجة علمت نفسها بنفسها.. نور فعلت شيئًا جعلك تقضي ليلك كله من أجل أن تحظى في البداية بنظرة ثم صار ما صار لأنك لم تبخل.

ـ أي شيء هذا؟

ـ اختارت لنفسها حياة جميلة أعجبتك وأردت أنت أن تدخلها.. لكم هي أنيقة في رسائلها.. إن كان لديك رسائل لم تخبرنا عنها فلا تبخل علينا يا أمجد.. ما أجمل الرسائل المكتوبة وإن كُتبت على ألواح معدنية.

قال أمجد:

ـ كتبت لي بالأمس تقول «أنت وطني أيها البعيد».. ثم تركت سؤال.

أشعل سيجارة وهو ينظر لتطلع أصدقائه.. أردف:

ـ تسألني هل أصابني يأس من عودتها؟.. هل سأستلم يومًا ما؟.. أعلم أن بيني وبينها أميال وأن أي إجابة لن تصل كما أريد.. سؤالها أشعل النار في كل ما هو حولي.. هذه النار ستأكل كل شيء إن لم نستطيع إعادة نور إلى القاهرة.

* * *

دائمًا مـا يمر أبـو الدهب أمـام الفنـادق الشـهيرة ولا يهتم.. لم يتمناهـا يومًـا ولم يسـعَ لدخولهـا.. كان يعجبه مـن مظاهر الثراء السـيارات ويتابـع أخبارها وكأنه يسـتعد ليوم سـيأتي ويختار ما يروق له.. بجانب السـيارات كان ينظر للمدن السـكنية الجديدة بإعجـاب وتمنـي.. لو أصبح يومًـا من الأثرياء كل ما سـيجد عليه السـيارة والسـكن وباقي الأشـياء لـن تختلف كثيرًا.. سـيقصد إسـلام ويواعد أمجد في المركب.. سـيدفع لصاحبه في الشـتاء 100 جنيه في الصيف و200 في الشتاء.

استعد أبو الدهب وتحرك كقائد أمام جنوده.. ارتدى من ملابسه مـا يليق.. دخل فندق "إنتـر كونتننتال كايرو".. علـى بعد أمتار من النيل حمام سباحة بداخل الفندق جعل أبو الدهب يحدث نفسه:

ـ كيـف يرى الذيـن يتـرددون على هـذا الفندق هـذا الحمام بجانب النيل؟!.. حمام سـباحة هنا شـيء لا يليق إلا بالأطفال فقط.

لـم يعانِ أبو الدهب في الوصول للدمياطي.. وجده يجلس برفقة شـخص آخـر يتحدثون في أمـر يبدو مهمًـا.. أشـار الدمياطي لأبو الدهـب فجلـس بعـد أن حياهـم وصافحهـم.. قـال الدمياطي بعد لحظات من جلوس أبو الدهب:

ـ أنا أجيد الاختيار.. سأمنحك فرصة للشهرة والمنصب والثراء وسـتمنحني مـا أريـد.. الجلـوس معي لـو تعي هـو فرصة من السماء.

سأله أبو الدهب بهدوء:

ـ مـاذا تريـد مني؟.. أتمنـى أن يحقق لـي ما أريد.. مـا أريده لا يختلف كثيرًا عن تفكير حضرتك.

أشار الدمياطي لثالثهم وقال:

ـ إذًا في البداية لا بد أن تتعرف على أحمد باشا موافي.. يكفي أن تعرف اسـمه وتتواصل معه بشـكل يومي.. سأخبرك عن طبيعة مهمتك.. سـتحصل على شهادة الجامعة فلا تنشغل بها عنا.. أنت تعلم عن الظرف السياسي والاقتصادي الذي يعصف بالبلاد.. نحن نريد أن نظهر في ثوب جديد بعض الشيء ليبدأ النـاس معنـا بحلم جديـد.. الحلم يجعل النـاس حالمة ووديعة بعكس اليأس الذي يجعل الناس تثور.. أتفهمني؟

حيا أبو الدهب أحمد موافي بابتسامة أدرك منها الرجل أن هذا الشاب هو ما يبحثون عنه.. ثم قال للدمياطي:

ـ أفهمك.. تعدون مجموعة من الشباب من أجل هذا..

قاطع أحمد موافي أبو الدهب.. قال:

ـ هؤلاء الشباب سيخرجون على المجتمع في شكل تنظيمي.. أقصد حزب سياسي.

كان أبـو الدهـب يحاول أن يسـتوعب الرجل.. رجل خمسـيني حليق الشـعر.. نظيف الثياب ويبدو أنه شـخص يمتلك من السـلطة ما يعادل الدمياطي..

غاب أبو الدهب عن الرجلين يتعجب من ثقتهما فيه.. ماذا قدما له غير الإهانة!؟.. هل هذا غرور!؟.. أم أن الكثير مر من هنا.. أبدى اهتمام وقال:

ـ المجتمع يحب أن يرى الشباب في الأحزاب بعدما ملو رؤيتهم في الميادين.

قال الرجل بإعجاب:

ـ أنـت تـدرك كل شـيء.. سـنمنحك مجموعـة من الشـباب..

تعدهـم للظهـور وتوجههم فنحـن لا نجيد التعامـل معكم.. لا يشـغلك شـيء آخر.. نحن سـنعد كل شـيء.. هـل تخيلت أن تصبح رئيس حزب سياسي في هذه السن؟

تعجب أبو الدهب:

ـ وهل هذا وارد!؟

ـ ستصبح أصغر رئيس حزب في العالم.. 24 سنة تكفي.

قال أبو الدهب وهو يتدير الأمر:

ـ هـذا أمر لن يقبله أحد.. العمل السياسـي بالنسـبة لشـاب لا يجـب أن تكـون بدايتـه هـكذا.. أنـا أسـتطيع أن أفعل هذا ولكنها فكرة تحتاج للكثير من التفكير.

قال الدمياطي هذه المرة:

ـ مجتمعنا أصبح يقبل كل شـيء.. بعد الثورة وجد المصريون أنفسهم يتخبطون في الهواء.. أريد أن أعرف وجهة نظرك في أسباب هذا يا أبو الدهب؟

ـ هذا طبيعي.

سأله أحمد موافي:

ـ لماذا تراه طبيعيًا!؟

ـ ألديك خادم قوي ومطيع ولا يخطئ؟

ـ نعم!

ـ لـو افترضنا أن حضرتك ستسـتيقظ مـن نومك غدًا بطقوس جديدة عليك وعندما يقترب هذا الخادم منك لن تعجبك منه نظرتـه.. فقمت بتعصيب عينيه كعقـاب.. ثم أعدت له عينية بعد نصف سـاعة وطلبـت منه قهوتك.. عندها سـيتخبط في الهواء.. لطالما كان من بين هذا الشـعب من يشـك في قدرة

المصريين في حكم أنفسهم.. يسعى البعض أن يمنح فردًا بعينه حق التصرف في أمره وهؤلاء قد يكون فقدوا الأب في الصغر فنظروا للحاكم نظرة أبوية.. بعض الشباب ينظر للثورة نظرة مثالية فلا يكذب في مجتمع يطلب منك الكذب ولا يخون في مجتمع يخون ولا يؤمن بوسيلة مكيافيلي للوصول لغايته..

قاطعه موافي:

ـ أتؤمن أنت بوسيلة مكيافيلي؟

ـ مكيافيلي كان واضحًا وإن تعددت الآراء.. كان يقصد بالغاية تطور المجتمع ونموه وحريته.. لا تفصل جملته الشهيرة عن مؤلفه الأشهر «الأمير» الذي يتحدث عن علاقة الحاكم بشعبه.

ابتسم موافي لأبو الدهب:

ـ كلما طال حوارنا زاد إعجابي بك.. اعتدنا هدايا سمير باشا.

قال الدمياطي:

ـأتمنى أن تظل دائمًا يا أبو الدهب مصدر فخر.. سأمنحك ما تريد وما تطلبه.. معك مجموعة من الشباب تصرف بينهم كزعيم حزب.. واستعد لحياتك الجديدة.. ستبقى في إمبابة لفترة أخرى ومن بعدها ستنثني لك الأرض.. لا تنسَ أبدًا أنه لن يكون مجرد حزب.. بل سيحصد مقاعد في البرلمان وسنصدر جريدة مع الوقت تعبر عنه مع موقع إلكتروني وسننتشر في شبكة الإنترنت بين الشباب وهذا يحتاج منك تألق دائم.

تأنى أبو الدهب في حديثه:

ـ أحتاج شباب تعي هذا.

رد موافي:

ـ حاولنا ولكن أنت الأهم.. أنت من سيخرج على المجتمع بثقة أراها فيك.

قال أبو الدهب:

ـ متى نبدأ؟

تعجل موافي:

ـ اليوم.. في هذا الفندق الشباب الذين حدثناك عنهم.. أقضي ما تبقى من اليوم معهم وسألتقيك في السهرة قبل أن تعود لبيتك.

انصرف الرجلان بعد أن أحضرا 11 شابًا وتركوهم لأبو الدهب.. جلس الشباب أمامه صامتين ومنهم من انشغل بهاتفه وبعضهم أظهر توترًا.. أشعل أبو الدهب سيجارة بمرح وجاءت القهوة التي طلبها.. الانطباع الأول لديه تجاه الشباب ساخر وغير مريح وأدرك لماذا اختاره الدمياطي.. قال وهو يتلذذ بقهوته:

ـ أمامنا فرصة لقضاء وقت جميل في هذا الفندق.. نتعارف ونخطط للقادم.. أتدركون لما نحن هنا؟

قال أحدهم وقد بدا عليه الحماس:

ـ نعم.. من أجل الحزب.

كان معظمهم يكبرون أبو الدهب في السن.. سألهم أبو الدهب من جديد:

ـ من منكم لديه خبرة بالعمل العام؟

تعددت الإجابات:

ـ أنا شاركت في ثورة يناير و30 يونيو وكنت عنصرًا مهمًا في حملة الرئيس الحالي.

ـ وأنـا ابن رجـل الأعمـال والبرلماني الشـهير أسـعد هنداوي واكتسـبت عن طريق تجاربه الانتخابية الكثير ومنها أيضًا تعرفت على العديد من رجال السياسة.

ـ أمـا أنا فهـذه تجربتي الأولى ورشـحني لهذا الدور شـخصية مهمة ترى أنني أستطيع أن أجيد العمل الحزبي والسياسي.

سـمع أبو الدهب من الجميع وأظهر لهم مودة كسـرت حواجز كثيرة وشـعر أنهم أطمئنوا له وفي المسـاء قضى بعض الوقت مع أحمـد موافـي، وفي طريقـه لإمبابة هاتـف الدمياطـي وأخبره أن الشباب رائعون وإن اختيارهم كان موفقًا ولكنه يحتاج شاب يثق فيه لأنه لن يثق في أحد من هؤلاء الشـباب بسهولة.. طلب منه شابًا مطيعًـا رأى مـن الظلم ما يجعله يظلم إن طلب منه ويفعل أي شـيء دون تفكير..

***

في المركب كان أمجد وإسـلام ومعهم سـمر فـي انتظار أبو الدهب.. قال أمجد:

ـ هذه الليلة هي الأهم.. سـنعرف ماذا سـنفعل ومتى نفعله.. إن أردنـا أن نحيـا كما نحب ومع من نحب فـلا بد أن ندرك أن ذلك يحتاج عزيمة وتحديًا.

قالت سمر:

ـ ليـس أمامي إلا تحرير أخي ثم الانتقـام من الدمياطي.. لو لم أنجح سأنتحر وأنا جادة في ذلك.

قبض إسلام على زند سمر وهو يقول:

ـ لن نستسلم أبدًا.. وإذا لم ننجح سنحاول من جديد.

وقـف أمجد فـي وسـط المركب ونظر للسـماء.. قـال بصوت

كانت تحبه نور:

ـ ليس هناك محاولات أخرى.. مثلنا تبخل الدنيا عليه.. لا بد أن نحارب وكأنه آخر نفس في آخر حرب من أجل الانتصار الأبدي أو الهزيمة التي لا حياة بعدها.

جاء أبو الدهب بزيه الأنيق وقال يطمئنهم:

ـ يبدو أن القدر سينصفنا.. أريد سيجارة يا إسلام وسأخبركم عن خطتنا.

اقتربت سمر من أبو الدهب.. قالت بإحساس فتاة تعرف متى يكون الغزل في الرجل واجبًا مقدسًا:

ـ هل تعلم أن مثلك خلق من أجل فتاة مثالية.. ما هذه الروعة يا قائدنا العظيم؟

ضحك بعنف وهو يقول:

ـ هل تعلمي أنتِ أنكِ الروعة الحقيقية ولو لم تكفِ لتجاوزت إسلام..

قاطعه إسلام وهو يعد السيجارة:

ـ أنت واهم.. لا تورط نفسك.

ـ أشهد لك وتشهد كل إمبابة.. ولكن أبعد هذه الساحرة عني.

منحه إسلام السيجارة وأبعد سمر عنه، وبعد لحظات كان يوضح لهم طبيعة الخطة بالتفاصيل.. عندما انتهى قال في حزم:

ـ لن نترك هذا المركب إلا بعد أن نتعاهد.. كلٌ منا لا بد أن يثق في نفسه وفي قدرته على تنفيذ ما يُطلب منه.. وأنا أعدكم الاحتفال بعد أيام.. بعد أسبوع سيكون هاني بينكم.. هذا الشاب يستحق أن نعد له الحياة من جديد..

أراد مــن الدنيا شــقيقته وأردت الدنيا منه أن يعاني.. هذا عن هاني أما عن نور فسوف نزين لها المركب بعد أسبوعين أو شهر لو طال الأمر.. انظروا إلى إمبابة.. تحب أن تراك سعيدًا يا إســلام.. وفــي المقابل الجزيرة تتلهف معــك يا أمجد قدوم نور.. في رأيكم هل هذا كل ما نريد؟

قالت سمر:

_ ماذا عن الدمياطي؟

أمجد:

_ إن تركناه فلن يتركنا.

إسلام:

_ لا بد من انتقام.

قال أبو الدهب في ثقة:

_ لا تتعجلــوا.. ســيكون انتقامًــا يليــق بجرائمــه.. ســننتقم لنا ولغيرنــا.. لن نبخل.. عندما يشــعر أنه حصل على كل شــيء سنســلب منه كل شيء.. سنجعله يخجل من النظر في عيون أحفاده.. سيســخر منه كل من يعرفه ومن لا يعرفه.. يتحدثون عن الدولة والأحزاب التي تثبت حكمهم وكأنهم مخلدون.. هــؤلاء في حاجة إلى نهاية حتى نبدأ نحن.. أي إنســان يتخيل لحظاتــه الأخيرة فــي هذه الدنيــا دائما.. هــو هاجس يصيب الأشــقياء والمحروميــن والمظلومين فقط خوفًا من خســارة الآخرة كما خســروا الدنيــا.. أما أمثــال الدمياطي فلا يروا النهايــة إلا مــع النهايــة.. ســنمنحه أمــلًا كاذبًــا وســنصعقه بالحقيقة المرة.. أنا لا أحب هذا الرجل.. علماء النفس يقولون إن الحــزن يطور عمل المخ ويعلمك التفكير الصائب.. دائمًا العلماء منصفون وبقدر حزنكم كان الرجل سعيدًا هانئًا.

صمت أبو الدهب فقالت سمر:

ـ دائمًا ما يصيبنا الانتظار باليأس أحيانًا والاكتئاب أحيانًا أخرى.. لكن انتظار نهاية هذا الرجل تمنحني قوة خفية وقدرات أسطورية.

قال أمجد:

ـ ما أجمل أن تتظاهر بالضعف والغباء وقلة الحيلة من أجل يوم تثبت فيه للذي ظن أنه أقوى وأذكى من الجميع بأنه عبء على هذه الدنيا.

قال إسلام:

ـ علمتنا الأيام أنها لن تمنحنا شيئًا دون مقابل.. فلنضحي بكل ما نملك حتى تمنحنا الأيام كل ما نريد.

شعر أبو الدهب بنقاء ذهني وراحة نفسية وأعصاب حديدية وكل هذا ناتج عن تحدي جنوده الممزوج بدخان الحشيش الذي ينتقيه إسلام بعناية.. ترجل وهو يتأمل سمر وهي في حضن إسلام ويتعجب من أمجد وقد تعلقت عيونه بالنجوم.. عند مقدمة المركب وقف يتدبر أمره.. تحدث لنفسه:

ـ من أنا الآن؟.. وأين؟.. أنا قائد لا شك.. خلفي جنود بواسل وأمامي عدو جبان.. سأبدأ من حيث أنا.. سأفعل ما أريد..

* * *

لم تحمل نور موبايل في نيويورك.. أمجد فقط من تسعى للتواصل معه فاكتفت بالواتساب.. عندما طلبها متصل على الخط الثابت ظنت في البداية رينا..

قال المتصل بصوت مرح:

ـ مساء الخير يا نور.. أنا خالد.. الشاب الذي منحتيه رقم الهاتف في الرحلة من القاهرة لنيويورك.

ابتسمت:

ـ أهلا يا خالد سعيدة بسماع صوتك.. كيف حالك؟

ـ الحمد لله.. أريد أن أشكرك ولا بد أن نلتقي.. الحياة هنا في حاجة لصديقة مثلك.

ـ تعرض صداقتك؟.. إذا لأمنحك هذا الشرف بسعادة أيها المصري.. فلنخرج لجولة في المساء.. انتظرت اتصالك.. كنت أعلم أننا سنلتقي مجددًا.

في المساء كانت نور تنتظر خالد بالقرب من ساحة التايمز بسيارة ضمن ثلاث سيارات تملكها أسرة المهندس علي.. الميدان كان مسرحًا لحادث دهس بالأمس وهذا ما جعل نور تنتظر في قلق إلى أن جاء خالد مبتسمًا من بعيد.. صافحها قبل أن تخرج بالسيارة للطريق.. قالت:

ـ ألم نجد غير هذا المكان؟!

قال خالد بثقة:

ـ كنت أعلم عن أمر الحادث.. لم أتردد للمجيء إلى هنا.. نيويورك لم تعد مخيفة للمهاجرين الجدد بقدر ما هي مخيفة للذين ظنوا أنها بلدهم.. هذه أعجب إمبراطورية على مر

التاريـخ.. هـذه المدينة تجعلنـي أندهش أكثر من أي شـيء آخـر.. لن يسـتطيعوا إغلاقها فـي وجه أحد.. سـأحكي لكِ شـيئًا قربنـي من هذه المدينة.. أنا خريج إعلام عين شـمس.. فـي الفرقة الثالثة طُلـب منا اختيار كتـاب حديث الإصدار قـدر الإمـكان.. لـكل طالب أن يختـار المجـال والـكاتب والعنـوان كمـا يحب لعمل ربورتـاج عنه مع إجـراء حوار مع مؤلفـه.. لـم أهتـم إلا باختيار كتـاب يعجبني وأسـتمتع به.. يعجبنـي أدب الرحـلات والكتابـات السـاخرة إلـى أن لفت انتباهـي كتـاب من نوع آخر.. صحفي شـهير قضى فترة من حياتـه في نيويورك.. يبدو أنه تعلق بهـا.. كتب تجربته بعمق ودلـل على تفكيك أمريكا في كتـاب يحمل نفس العنوان "تفكيك أمريكا".. الطبعة التي حصلت عليها كانت الثالثة والأخيرة.. كانت الثالثة بعد طبعتين.. الأولى في العام 1998م والثانيـة كانت في بدايـات 2001م.. أي قبل أحداث الحادي عشـر من سـبتمبر بأشـهر.. في الطبعة الثالثة كتب المؤلف مقدمة جديدة للكتاب من أجل نيويورك.. كان حزينًا عليها وهذا لم ألمسـه في العرب.. نحن نكره أمريكا التي تقتلنا في فلسـطين وفي العراق وتعبث في سـوريا وتسعى لصناعة شـرق أوسـط جديد.. أما أمريكا الأحلام والثروة والسينما وأجهـزة أبـل فـلا نرفضهـا ونقدسـها أحيانًـا.. فـي كتـاب "تفكيـك أمريـكا" كان المؤلـف يرى أن الدولـة العظيمة سـتتفكك من الداخل وأن الخـارج أصبح بعد انهيار الاتحاد السـوفيتي لا يسـتطيع تهديدهـا رغـم نظرتها التـي ما زالت مريبة تجاه روسـيا وتغول التنين الصيني.. انطلق الكاتب من نهاية الاتحاد السـوفيتي.. تعالت أمريكا على العالم وحاولت أمركتـه.. بلـد شـكلها العام تحـاول أن تلتهم العالـم ذاته..

تاهت الإمبراطورية بين المثالية والواقعية.. بين الثروة والفقر والأبيض والملون.. بين المال والسلطة والمساواة والسيطرة على العالم.. بدا العربي قبيح والإسلام عدو.. إمبراطورية "بكعب أخيل" كما وصفها المؤرخ بول كندي وهو يشير إلى نقطة ضعفها..

صمت خالد لحظة ثم أردف:

_ سأحكي لكِ الجانب الساخر من الحكاية.. أعددت الربورتاج وبدأت أراقب المؤلف حتى أصل إليه وكانت المفاجأة.. كان هناك من يسعى خلفه غيري.. انشقت شوارع القاهرة وبلعت "رضا هلال" مؤلف الكتاب.. في آخر أيام تقديم الربورتاج وفي المحاضرة كنت مسار سخرية من الجميع.. كنت أنا أول الساخرين عندما وقف الأستاذ الجامعي الكبير الذي لا يبتسم كثيرًا.. وقف يسخر مني ومنحني درجات الربورتاج منقوصة.

تعجبت نور:

_ إنه شيء يدعو للسخرية حقًا.. لم يظهر رضا هلال من وقتها.. كان ذلك عام 2003م.. كم هو سنك أيها العجوز؟

_ 35 سنة.

_ تبدو أصغر من ذلك.. أين تسكن في القاهرة تحديدًا؟

_ مدينة نصر.

_ يبدو أنك حصلت على عمل وسكن مريح.

_ بالفعل.. لم أعانِ كثيرًا رغم شعوري بالغربة.. ترددت كثيرًا عند الاتصال بكِ.

_ أنا منحتك رقم الهاتف من أجل هذا.

ـ ما الذي دفعكِ لذلك؟

ـ لا أعلم.. لي أصدقاء في القاهرة لا يختلفوا عنك كثيرًا.

ـ أعلم أنكِ قد تعودين للقاهرة قريبًا.. لو شاء القدر وتصادفنا في يوم من الأيام في القاهرة سأمنحك شيئًا من جمالها الخفي.. القاهرة لمن يعلمها جيدًا تصب دلالها في النيل..

قاطعته:

ـ هل تعرف أمجد وأبو الدهب وإسلام؟

ـ من هؤلاء؟

ـ إنهم أصدقائي الذين حدثتك عنهم.. منحوني هذا لمرة واحدة.. حقًا القاهرة تصب دلالها في النيل.. إن قدر الله لنا أن نلتقي في القاهرة سأمنحك فرصة لمعرفة أصدقاء رائعين.. المهم الآن نيويورك.. أريد أن أدخلك هذه الحياة حتى لا تدميك الوحدة وتقتلك.. لي صديقة وحيدة هنا للأسف اسمها رينا.. ما رأيك لو تعرفت عليها؟

ـ لا أمانع.

ـ أصنع عالمك يا خالد.. ولا تترك كل شيء للأيام.

تأني خالد وأخذ يعبث في لحيته.. قال:

ـ أنتِ حزينة.. ألا تبتسمي مرة؟

ـ في رأيك من نسأل عن الحزن؟.. علماء النفس أم الفلاسفة؟

ـ هناك علماء من نوع آخر يُطلق عليهم "علماء الألم".

ـ ماذا قالوا؟

ـ قالوا إن الحزن له جانب إيجابي.. يزيد القدرة على رؤية التفاصيل ويجعل صاحبه لديه الملكة في تبسيط الأشياء.. قالوا إن الحزين قد يكون أكثر عدلاً ويمكنه التخطيط

والتفاوض وذاكرته نشطة بشكل دائم.

ـ لماذا لا أحزن إذًا؟

ـ الحـزن لا يتحملـه المـخ.. يتركـه للصـدور والقلـوب مع أنه مصدره.. ألا يضيق صدرك ويعاني قلبك؟

ـ نعم يحدث.. نومي كالغثيان ويقظتي معاناة.

ـ لمـاذا تحزني إذًا؟.. أراني مدين لكِ بالكثير.. ماذا لو جعلتك سعيدة هذه الليلة؟

نظرت نور لخالد بعناد:

ـ جسـدك المسـتقيم كالنخيل وملامحك الشـرقية وثقافتك وروحـك.. كل هذا منحك الثقة لتعبث مع المسـتحيل.. بيني وبين السعادة آلاف الأميال يا خالد.

ـ أقصدي الآن مطعم "لو سـيرك le cirque".. نأكل أولًا.. فلا سعادة بأمعاء خاوية.

توقفت نور على جانب الطريق بعصبية.. قالت بفوران:

ـ من أنت؟!

ـ ما الأمر؟!

ـ فـي البدايـة رأيتـك شـابًا تغـرب من أجـل العمـل فنصحتك بمكاتـب العمـل على أمـل الحصول على وظيفـة رجل أمن.. الليلـة رأيتـك تقتحم سـاحة التايمـز بثقة ولم تخشَ الشـرطة الأمريكيـة الخبيـرة في وجـوه الغربـاء.. والآن تقصد أفخم المطاعـم في نيويـورك والعالم.. أعلم أنـك تحمل المزيد من المفاجـآت.. هـل كذبت عندمـا أخبرتني أنهـا أول رحلاتك لنيويورك؟

ـ نعم كذبت.. كنت أريد أن أستمع إليكِ..

قاطعته في حدة:

ـ لم يكن هناك داعي للكذب يا خالد.

قال وهو يبتسم:

ـ أذهبـي إلى المطعـم.. نأكل وبعدها نتحـدث يا نور.. كانت أصـدق كذبـة.. أعلـم مـدى نقائـك وأعتقـد أنـكِ تركتي جسـدك وقلبك هناك في القاهـرة فـلا داعي للقلق.. لا أطمع إلا في قضاء بعض الوقت معكِ.

أدارت نور محرك السيارة وهي تتفرس في خالد بدهشة.. دخلا المطعـم بأناقـة تليق بالمـكان.. جلس خالـد بعدما جلسـت نور.. سألها وهو يبتسم ابتسامة صفراء:

ـ أهذه أول زياراتك للمطعم؟.. أمامك فرصة للكذب.

ابتسمت بسخرية:

ـ لن أكذب أيها الخبيث.. لن أصبح مثلك.

ـ لن تصبحي مثلي.. في الطائرة عندما رأيت الصدق في عيونك تعجبت كثيرًا.. لم أجد إلا الكذب في عيون كل من حولي.. أنا أحترف الكذب ولكني نادم حقًا على كذبتي أمامك.

ـ لا تندم بشرط ألا تكذب مجددًا.

ـ لن أكذب وأريد أن أمنحك شيئًا يسعدك.

ـ هل تستطيع أن تعيدني إلى القاهرة؟

ـ ما الذي يمنعك عن العودة؟

ـ السـفارة الأمريكيـة فـي القاهـرة بالتواطؤ مع أسـرتي.. لو كنت أعلم هذا قبل مغادرة القاهرة ما تركتها.. كنت أظن أن السلطات المصرية هي من أبعدتني.

ـ هل أنت مستعدة للعودة رغم رفض أسرتك؟

ـ نعم.

قال خالد بثقة:

ـ الآن أنتِ تشتاقي وتحني للقاهرة ولكنك عاجزة.. هذا أمر مؤلم.. سأمنحك الراحة فلا تستهيني بي.

ـ لا أستهين بك.. أنا خائفة منك.

قال خالد بعصبية وبصوت عالٍ سمعه كل من في قاعة المطعم:

ـ ما الذي يخيفك.. أحاول جاهدًا أن أبدو مثاليًا.. أنا حقًا مخيف ولكني لا أريد أخافتك..

صمت خالد وقال ببطء بعد أن تنفس بعمق:

ـ أعرفك بنفسي إذًا.. أنا خالد في جواز السفر المصري.. وسام في الجواز الأمريكي.. لا أتذكر الآن اسمي في الجواز المكسيكي.. ولكني أتذكره في الجواز اليوناني.. في اليونان أنا سوكراتيس.. لم تستعصى علي جنسية.. أنا مزور وقاتل وتاجر سلاح .. أنا شاب بحجم مافيا.. أبدو أمام الجميع الشاب الباحث عن وظيفة رجل الأمن..

قاطعته ببطء أشد:

ـ الآن فقط لم تعد مخيفًا أيها الحقير.

قال معاتبًا:

ـ لم أهينك ولو مرة.. لم أكن معك إلا الشاب الحالم الذي صادفك في الطائرة.

ابتسمت ساخرة:

ـ يبدو أن سذاجتي تعجبك.

ـ أنا أشبهك يا نور.. أنا ضحية لو تعلمي.

همست همس كأزيز الرصاص:

ـ قاتل ومزور وتشبهني!!.. هل أنا قبيحة لهذه الدرجة؟

شـعر خالد بإهانة ذكرته بماضية المزدحم بالإهانات.. اقترب منه النادل الذي تحدث إليه بتفخيم وترحيب.. طلب الطعام الفرنسي الذي يقدمه المطعم ثم نظر إلى نور مرتجيًا:

ـ لم أكن أود أن يكون لقاؤنا بهذه الحدة.. تنتابني الآن خيبة أمـل تذكرني بخيبات تورات.. لا تكونـي بهذا الجفاء أمام شاب لا يحمل لكِ إلا إعجاب وتمنى وصالك ولو لليلة واحدة.

لمعت عينها وهي تتأمل عذوبته ورقة كلماته وضعفه أمامها:

ـ لـك مـا تريـد.. وعدتني بليلة سـعيدة فهل تقـص عليّ قصص قتلاك أم مهارتك في استخدام السلاح؟

ـ سيسود الصمت لو أردتِ.

ـ أريد أن أفتش في ماضيك عن شيء يغفر لك.

قال بصوتٍ هارب:

ـ تأتي في حياة كلّ منا لحظة تبدلنا..

قاطعته بدهشة:

ـ أقسـم لـك يـا خالـد أنـك علـى حـق.. أنت تشـبهني وتشـبه أصدقائـي.. صدفـة الطائرة كانت فكـرة ذكية من القدر ولعبـة لها مغـزى من الحياة.. هيـا.. حدثني عـن اللحظة التي بدلتك أنت الآخر.

تشجع وقال:

ـ أنـا من أصـول ريفية.. من قلـب الدلتا.. كانـت طفولتي عند الحـد الفاصل بين محافظة كفر الشـيخ ومحافظة الغربية.. كثيـرًا مـا كنت أبدأ يومي في محافظـة وأنهيه في أخرى.. كبـرت وكبرت الفكـرة معي وصرت أبـدأ يومي في قارة

وأنهيه في أخرى.. أنا ابن الفلاح الذي حلم بمضرب التنس.. أنا ابن القرية البسيطة الذي يجالس حسناء في أشهر مطاعم العالم.. هذا يدعو للفخر حقًا ولكن كان الدافع إهانات لم أقبلها.. وكان الثمن ترحالاً سقطت فيه هويتي كسحابة مطر تفرقت على الكرة الأرضية بعصبية.. عندما التحقت بجامعة عين شمس وأقمت في القاهرة أقدمت على التودد لرجال الأعمال الناجحين رغبة في الثراء السريع.. تعرفت على رجل من أسرة ثرية.. هذا الرجل اعتاد زواج الفنانات والراقصات.. كان شديد العصبية والغيرة وفي ذروة غضبة كان يفقد كل شيء ويذهب عقله.. اعتاد إهانتي فانتقمت منه بذكاء وصرت على ما أنا عليه.

صمت فسألته:

ـ أين ما بدلك وغيرك؟

ـ كان انتقامي بشع.. عندها أدركت أنني أسير في طريق لن أعود منه.. أمتلك عقلاً يجيد التخطيط المحكم.. أصبحت أشعل النار ولا أبالي.. أجيد التخفي والتمثيل والتمويه.

شعرت نور بضيق في التنفس.. قالت بعصبية:

ـ ما هذه الحياة التي تحيياها.. أراك ظالمًا وجانيًا ولا تشبهني في شيء.

قال وهو يتصنع التلذذ بالطعام:

ـ أعيدك للقاهرة ثم نفترق.. لا تقلقي لن تجمعنا صدفة أخرى.. في حياتي لن أصادف مثلك مرتين.

انتظرها فلم تنطق فأردف:

ـ كيف ومتي تفضلي العودة؟

ـ ما الذي يجعلني أثق بك؟

ـ لن أجبرك.. هذه الحياة انفجار كبير والذين يجيدون الاختيار ناجون وهانئون.. الأمر عائد لكِ.

ـ قاتل.. تاجر سلاح.. مزور.. ترى نفسك بحجم مافيا.. عندما تصف الحياة بالانفجار الكبير فهذا طبيعي ومقبول.. أخبرني الآن ماذا لو قبلت؟

نظر إليها نظرة جافة من كل المشاعر.. قال:

ـ تدخلين للقاهرة بلا عودة إن أردتِ.

ـ بلا عودة.. كيف!؟

ـ هوية جديدة.. اختاري اسم وجنسية و..

قاطعته بضحكات عصبية:

ـ تريدني أن أصبح مثلك؟

ـ بإمكانك أن تفعلي هذا لمرة واحدة.

ـ لا يا خالد.. أريد عودة مختلفة بعض الشيء.

ـ كيف هي؟

صمتت تفكر للحظات ثم تحدثت بملامحها الجميلة قبل أن تنطق:

ـ أريد أن أعود للقاهرة بشكل يهين كل من أبعدني عنها.. أعود وأنا أسخر من سلطاتهم ومناصبهم مع احتفاظي بهويتي.. أنا نور وسأظل نور.. هل فهمت؟

ـ نعم.. ستدخلين القاهرة كما تريدين.. أتركيني أفعل هذا وأنا سعيد.

ـ من أين لك بهذه الثقة يا خالد؟

ـ أمثالـي هم من يتحكمون في مصائرهم ومصائر العديد من البشـر.. نحن نسـيطر على العالم ومنا من يتاجـر به.. منا من يغتصب جماله.. منا أيضًا من يتلذذ بحروبه وصراعاته.. تصل حسـابتنا فـي البنوك لأرقـام خيالية ومع ذلك نظل نسـير في الطريـق.. أنا هنـاك حيث اللاعودة.. واللاتوبـة.. والندم جائز والخوف رفيق يهشـم الجانب الخير بدواخلنا.. نحن الحكام قبـل الحكام.. نأتي بالديمقراطية أحيانًـا وبالحروب أحيانًا أخرى.

ـ على مصر إذًا أن تفخر بك.

ـ لا.. مصر لو تعلم لحاكمتني وتبرأت مني.

ـ تعلم ماذا؟

ـ قلت لكِ إننا نسـيطر ونحكم.. مصر كانت وما زالت ملعب لمزاولة أبشع التجارات.

ـ هل أجرمت في حق بلدنا؟

قال وهو يهرب في ثوب امرأة مرت كطيف من أمامه:

ـ هل لديك علم عن قضية الدم الملوث "هايدلينا".. كنا نصدر الموت لمن ينتظرون الحياة..

قاطعته بمرارة:

ـ ما أسواءك..

قاطعها بحدة:

ـ اللـوم علـى من ينتظر مـن مثل هذه الأنظمـة الحياة.. صاحب الشركة الذي تودد إلينا واستعان بنا كان من داخل النظام.. عضـو برلماني من الحزب الحاكم وبالتأكيد خلفه حزبه.. لا أعمـل بمفردي ولم أكن صاحـب القرار وتورطت في هذه

الجريمـة وغيرها من الجرائم التي أصابت الشـعب المصري بأمراض خبيثة وفقر مدقع.. الشـعوب التي تحيا في ظل هذه الأنظمـة معدل أعمارها ينهار.. انظري إلى الشـعب المصري الذي يصل سن المعاش لينتظر الموت.. قلت لك إن الندم جائز وأنا ندمت حتى غيبني الندم أيامًا وليالي عن هذه الحياة.

انتظـر منهـا تعقيـب فلـم تعقـب.. رأى ملامحها تلعنـه وصمتها يمقته.. عاد يبحث عن مخرج.. قال:

ـ القاتـل لا يجيـد السياسـة دائمًا.. قد يجيـد المكر والخداع ولكن تبقى نظرته للسياسـات منقوصة ومشـوهة.. أدركت ذلك مع ثورة يناير.. ستدهشين لو أخبرتك أنني عدت للقاهرة أثنـاء الثـورة وقـت أن كان يهـرب الجميع.. دخلـت الميادين حتى أذوب مع الثوار والمقهورين.. شباب مصر لم يغفر للنظام وكان يصرخ بجرائمه.

صمت علها تنطق فلم يجد منها إلا النظرات الغاضبة.. أردف:

ـ منـذ الثـورة وأنـا أبحـث عن حيـاة جديـدة.. في الحيـاة التي أحياها قد يكلف قرار مثل هذا الحياة نفسها.

قالت نور بعد صمت مرير:

ـ أردت أن أفتش في ماضيك عن شيء يغفر لك فلم أجد.. لماذا كل هذا الصدق؟

ـ طلبتي مني عدم الكذب فلم أكذب.. فهل تقبلي مساعدتي؟

ـ لا أقرر بمفردي.. لي أصدقاء في القاهرة سأشاورهم في هذا الأمر.

* * *

قدر الأذكياء أن يُساء فهمهم دائمًا.. هذا يصيب بالاكتئاب.. يلجؤون حينها للحواسب الذكية وينعزلون قدر الإمكان.. دائمًا عظماء في أعين أنفسهم.. بداخلهم صراعات يعلمونها وحدهم.. كادت أنت تكسرهم ولم تستطع أن تتمكن منهم.

عندما دخل أبو الدهب مكتبه في مقر الحزب الجديد لأول مرة لم يستوعب حجم الفخامة.. لديه تجارب مع أحزاب اليسار التي تحاوط ميدان التحرير.. كان يقصدها مع رفقائه وقت الثورة للراحة والمبيت أحيانًا.. كانت متاحة للجميع.. دائمًا ما كان يجلس على أبوابها شيوخ طاعنون في السن.. جدران ارتشفت الرطوبة وهي تراقب صراعات ونكسات واحتجاجات ولم تنهار.. أما هنا فالحزب يدعمه رجال أعمال ويؤسسه رجال الدولة.. هنا الأمر مختلف.. فتيات مثيرات تستقبلك بابتسامات مختلطة بروائح عطور مستوردة تفاعلت مع نسمات التكييفات فصنعت عالمًا خياليًا.. أول أيام أبو الدهب "رئيس الحزب" في المقر لم تخلُ من الكوميديا السوداء.. كان ينظر للجميع باحترام يُخفي سخرية وكانوا ينظرون له باحترام يُخفي حسدًا.. كان يفضح الحسد خلف نظراتهم فيسخر منهم أكثر وأكثر.. كل المكاتب مشغولة وكل المناصب حصل عليها أصحابها إلا المكتب المجاور لمكتب رئيس الحزب ظل ينتظر قرارًا من رئيس الحزب.. أبو الدهب من سيختار معاونه بنفسه..

في المكتب الخاص برئيس الحزب كان أبو الدهب يترقب الساعة المعلقة في توتر.. هذا المساء سيحل ضيفًا على أشهر الفضائيات.. يعلم طبيعة ما هو مقدم عليه.. سيدافع عن الحزب وطريقة تأسيسه.. سيناظر رفقاءه القدامى بعنف واستماته حتى

يبدو رئيس الحزب الناجح.. وعده الدمياطي بتحقيق كل أوامره ولكن هذا يحتاج تحقيق إنجاز يستحق.. نجاحه في مناظرة الليلة هو الإنجاز الذي سيضعه على الطريق الصحيح.. لم يدرك أن قدره صعب ومؤلم وأن اختياره له عواقب لم يستوعب أبعادها كما يستوعبها الآن.. كلما صمد ليستعد للدفاع عن أشياء يرفضها ينهار من جديد..

اهتز هاتف أبو الدهب بغتة ليخرجه من شروده.. سمير الدمياطي ظل ينتظر الرد حتى أجاب أبو الدهب:

ـ صباح الخير يا معالي الباشا.

ـ صباح الخير يا أبو الدهب.. هل أنت مستعد للمقابلة التلفزيونية؟

ـ نعم.. لا تقلق.

ـ ألم تختار من بين الشباب إلى الآن مساعدًا لك تثق فيه ويحمل عنك أعباء تظنها مرهقة.

قال أبو الدهب بتأني:

ـ الليلة بعد أن أنتهي سأخبرك عن هذا الأمر.

ـ إذًا أتركك الآن وأتمنى لك التوفيق يا بطل.

انقطع الاتصال وعاد أبو الدهب يراقب الساعة.

في المساء وفي المدينة الإعلامية العملاقة وصل أبو الدهب في الموعد المحدد له.. استقبل بحفاوة تليق برئيس حزب.. في قاعة أُعدت للانتظار خارج أستوديو الهوا كان مناظره يترقب.. "عبد الرحمن عبد الله" أحد الطلائع الثورية الذي يعرف محمد أبو الدهب جيدًا.. استقبل أبو الدهب بفتور وظل صامتًا.. بادره أبو الدهب متلعثمًا:

ـ ما بك يا عبد الرحمن؟

قال عبد الرحمن بصوت مؤثر:

ـ لا شيء يا رفيق سوى الخزلان الذي يملأ العين بالرمال الجافة التي تترك آثارها على الأرصفة أسفل أقدامنا.

أدرك أبو الدهب ما وراء الكلمات ففضل الصمت فعاد عبد الرحمن يسترسل:

ـ هذه الفترة كالمرور على الصراط.. طريق الثورة كحد السيف يدمي الأقدام.. الرجال وحدهم من يعاندون ويصمدون..

قاطعه أبو الدهب بمرارة:

ـ لن يجدي هذا الحديث الآن يا صديقي.

ـ أعلم.. أعلم.. ولكن مثلك لا يعلم.. كلما تذكرت صوتك الجهوري وأنت تهتف باسم الشهداء لعنت الثورة والميادين.. وحدهم الشهداء يا رفيق من ثاروا ونحن نشهد بصدقهم لنكذب ونخون.. أنا مثلك يا أبو الدهب وبعد لحظات سأكون على اليسار وأنت على اليمين وبيننا إعلامي حقير.. سنقتسم المشهد بأنصاف فلا تجور.. هل أدركت خيبتنا؟

ـ نعم أدركت.. وأدركت الفوران بداخلك.. فهل تدرك ما بداخلي؟

ضحك عبد الرحمن ساخرًا:

ـ والحق الذي جمعنا في الميادين أدرك الباطل الذي بداخلك الآن.. لا تقلق لن أقسو عليك.. لن أهينك فأنت بين يدي أسير ولك معاملة الأسرى..

ـ لا يا عبد الرحمن.. ما أردت هذا منك.. انتصر لأفكارك ولا

تخون كما خونت أنا.. كل ما أخشاه أن أبدو أنا الحق وأنت الباطل.. اعتدتك قويًا تمتلك المبدأ والفصاحة فلا تتردد وأعد كل ما تملك فأنت لو تدري لن تنسى هذه الليلة.

قال عبد الرحمن بعيون دهشة:

_ وليكن ما تريد.. لم أكن لأترك هذه الليلة تمر عليك كمرورها على الواهم المنتشي بنصر رخيص.. لكني كنت سأرفق بك.. والآن الأستوديو ينتظرنا.. هيا بنا لنصنع من خيباتنا مادة إعلامية مثيرة.

دخلا الأستوديو متنازعين وناقمين على حالهم.. وبعد فترة من الزمن مرت عليهم وكأنها الدهر خرجا كما دخلا.. قبل أن يفترقا وقف عبد الرحمن يثني على أبو الدهب قائلًا في ألم:

_ أقسم لك يا رفيق أنك كنت قويًا كالثورة وأنا كنت ضعيفًا كالهاربين والمهزومين.. أعداؤنا يعرفون من أين تؤكل الكتف.. بك نُهزم بعدما كنت لنا رأس الجيش وميمنته وميسرته..

قاطعه أبو الدهب بصوت حانٍ كالحرير:

_ لا تلومن نفسك يا عبد الرحمن.. هذه طبيعة بلادنا.. الباطل دائمًا ينتصر عندما يضرب الحق بمثالية وشرف.. متى فقدت المثالية كنت المثالي ومتى فقدت الشرف كنت الشريف.. حتمًا ستنتصر ثورتنا عند قمة الوضاعة وأسفل كبرياء الهرم.. عُد إلى بيتك وأخبر الرفقاء أن أبو الدهب سيعود بجيش من شواذ ومثليين.. سأعود ملوثًا وضيعًا لأضرب الشواذ والمثليين بسلاحهم الرخيص.

عند الخروج أستقبل أبو الدهب مكالمة من أحمد موافي تخللها ثناء وحفاوة ورغبة في الاحتفال ثم تلتها مكالمة من سمير

الدمياطي.. بمجرد اتصال الخط صرخ الرجل في وجه أبو الدهب:

ـ منحتنا الكثير في زمن قليل يا فتى.. أطلب تجاب.

رد أبو الدهب بهدوء:

ـ أحتاج من أثق به.. أحتاج مساعدًا بمواصفات خاصة.

ـ لدينا رئيس دولة واحد أتركه ومن سواه أختار.

ـ في سجونك شاب حزين لو خرج للحياة من جديد لوثقت به كل الثقة.

صمت الرجل لحظات ثم قال مستسلمًا:

ـ تقصد من يا أبو الدهب؟

ـ قضينا أنا وصديقي أمجد أسبوعًا تقريبًا معه في زنزانة ضيقة.. أنسيت؟

رد الدمياطي بجزع:

ـ أنا لم ألتقِ هذا الشاب ولو لمرة.. ليس لدي مانع ولكن كيف يبدو الآن؟.. لقد مر عليه في هذه الحجرة سنوات.

ـ يبدو فاقد الشعور بكل من حوله.. أتركه لي غدًا في الثانية ظهرًا بميدان سفينكس كما تركتنا.. سأعيده دون قلبه.. سأعيده بلا شعور.. سأيقظ عقله فقط وسيصبح لدي الخادم المطيع.. لا أريد أن يحتك به أحد ولا يتحدث إليه أحد من رجالك.. هذا الفتى يحتاج معاملة من نوع آخر.. أترك معه عنوان سكن بسيط يسكنه فهذا الشاب فاقد كل شيء.

صمت الدمياطي برهة وشرد قليلًا.. فقال أبو الدهب:

ـ لم أختار رئيس الجمهورية يا معالي الباشا.

ضحك الدمياطي بعصبية:

ـ انتظر في سفينكس عند الثانية ظهرًا.

صمت الدمياطي من جديد ثم عاد وأردف:

ـ أتذكـر يا أبو الدهب القـدر حين جمعنا في قصر البارون؟.. أنا تناسـيت بعض التفاصيل ولم أنسَ وقفتك أمام أصدقائك لتخفيهم عني.. لم تستطع أن تخفيهم.. تذكر هذا جيدًا..

قاطعه أبو الدهب:

ـ بل استطعت وفوق ذلك أصبحت من رجال السياسة البارزين.. لا تهين قدراتي وامنحني الثقة فنجاحنا واحد.

شـعر الرجـل أنه فـي حاجة إلى خطـاب من نوع آخـر بعيدًا عن التهديد والوعيد فلجأ للترغيب:

ـ لك ما تريد يا أبو الدهب.. استخدم حسابك البنكي واحصل له على سـكن يعجبك.. ألا تستخدم الأموال أبدًا؟.. حسابك البنكي يصنع لك طريق في النيل إن أردت.

عـاد أبو الدهـب إلى إمبابـة وهاتف أمجد قبـل أن يغط في نوم عميـق.. في اليوم التالي وعنـد انتصاف النهار كان أمجد يوقظه.. قال أمجد برفق:

ـ أنا في الموعد يا صديقي.

قال أبو الدهب بجفون منتفخة:

ـ اتصل بإسـلام لينتظرنـا.. دقائق أرتدي ملابسـي فنحن على موعد مع يوم مرهق.

انطلـق الأصدقاء الثلاثة نحـو ميدان سـفينكس.. في الطريق قال أبو الدهب:

ـ في الميدان سننتظر هاني.. سيحصل على حريته بعد قليل..

قاطعه إسلام:

ـ هاني شقيق سمر؟

قال أمجد:

ـ بهذه السرعة يا أبو الدهب؟!

قال أبو الدهب بقوة:

ـ أنت يا أمجد تدرك شقاء هاني.. لن يرى سمر ولن تراه قبل أن يبدو في مظهر وصحة جيدة.. سنبحث له عن سكن اليوم ونشتري له الملابس وعلى إسلام أن يقيم معه حتى يعود لبيته.

في الميدان ظل الأصدقاء بالسيارة يدخنون بشراهة وتوتر.. لاحت سيارة جيب سوداء تتحرك بعصبية وتوقفت أيضًا بعصبية.. ترجل منها رجل عملاق وجذب هاني بعنف وتركه على الرصيف.. انطلقت السيارة بجنون فقفز الأصدقاء من سيارتهم باتجاه هاني الذي هوى على الأرض.. احتضنوه ولملموا جسده الضعيف والمهشم كالزجاج المسرطن.. تأثروا وبكوا فتبين ملامحهم.. قال بصوتٍ مرتبك وهزيل:

ـ لم أفقد إيماني بكم.. رأيت الصدق في عيونكم فلم أقلق.. أين سمر يا أمجد؟.. أين هي يا أبو الدهب؟

في السيارة قدم له إسلام نفسه:

ـ أنا إسلام صديق أمجد وأبو الدهب.. سمر بخير.. تسترد روحك وجسدك وخلال ساعات ستكون في حضنك فلا تتعجل.

قال هاني وهو يبتسم رغبة منه في تجفيف دموع الأصدقاء:

ـ كانت تجربة مريرة ولكنها وضعتني في طريقكم.. ظلام السنين يهون أمام صدقكم يا شباب.

بادله أمجد الابتسامة وهو يقول:

ـ حقًا كانت تجربة مريرة يا هاني.. لم نتحمل أنا وأبو

الدهـب الزنزانة المخيفة أسـبوع.. تجربتك عظيمة لا شـك.. سـتتذكرها بفخـر بعـد أن تثـأر وتنتقـم علـى مـن أخفـاك لسنوات.

قال أبو الدهب:

_ أنا الآن من الأثرياء.. سنبتاع ملابس من أفخم الماركات.. لا تفرطوا فهذه أموال الشعب.

ولجـوا معًا مـولاً تجاريًـا كبيرًا وبعـد أكثر من سـاعة خرجوا محمليـن بملابـس وأحذيـة.. بدل هاني ملابسـه بعـد أن حصل على دُش دافئ بعدما حلق لحيته الكثة وشـعره الأشعث.. كل هذا وهم يتجولون بالسيارة في شوارع الجيزة.. بدا لهم بوضوح لأول مرة.. كما وصفته سـمر (جميلًا بجسـد يتمناه الشـباب وروح تجذب الجميع).. قصدوا أحد أشهر المطاعم.. في المطعم انشغل أبو الدهب بالموبايل فبدا لأصدقائه يبحث عن شيء.. سأله أمجد فأجاب:

_ أبحث عن شـقة عن طريق تطبيق "أوليكس".. وجدت شـقة للإيجـار فـي العجـوزة.. أراها مناسـبة فهي قريبة مـن إمبابة وقريبة من الدقي.. وقريبة من وسط البلد.. سأهاتف صاحبها.

أجـرى أبـو الدهـب اتصـالاً ثم تناولـوا الطعـام وتوجهـوا معًا نحو العجوزة بالقرب من مستشـفى الشـرطة على بعد خطـوات من النيل.. لدى أبو الدهب المال والسـلطة لينهي أي اتفاق في وقت قياسـي.. لم يسـتغرق الأمـر أكثر من نصف سـاعة وحصلوا على مفتاح الشـقة.. صعدوا معًا ومكثوا بالشقة بضع دقائق ثم انصرف أبو الدهب وأمجد وتركوا إسلام مع هاني على وعد باللقاء في المساء عند النيل.

* * *

تأتي الشمس من بعيد وتذهب للبعيد.. لم يسألنا القمر في إحدى الليالي كيف كانت الشمس؟.. تعاقب النهار والليل قد يصبح عادة سيئة وحركة بلا معنى من الكرة السماوية إن لم تحمل لنا الحياة جديدًا.. الأمس إن لم يكن دافعنا لليوم فلماذا كان؟.. واليوم الذي يبخل علينا لماذا يكون؟.. قناعتنا نحن في تغيير الدنيا ضرب من الخيال وعبث بخطوط الطول وعرقلة في خطوط العرض.. أما تغيير الحياة فهذا حق مشروع.. يستطيع الحالم أن يصنع من خطوط الطول وتر مرن لقيثارة تعزف لفتاة حالمة تحزمت بخطوط العرض لتتراقص فوق مكعبات حدودها الدول وألوانها بحار ورمال وغابات.

هذه الليلة عند شاطئ النيل تنذر بجديد.. المركب مهيأ لرحلة جديدة فوق عزوبة الماء وأسفل زرقة السماء.. جاءت سمر بنهدين من مرمر وبيلسان وأرداف من جمار.. ابتسمت لأمجد وأبو الدهب فاحتفلوا بأناقتها بكلمات غزل ونظرات مفضوحة.. سألت عن إسلام فرد أمجد متصنعًا الغضب:

ـ سئمنا من قلبه ومن حشيشه الفاسد.

صمت فأكمل أبو الدهب:

ـ لدي قلب ولديكِ مخدرات تذهب عقول الحكماء.

جلست على وسادة من إسفنج.. قالت بخبث:

ـ ما أجمالكم حين تغازلون حبيبة صديقكم.. أين هو؟

بادر أبو الدهب:

ـ يا لكِ من فتاة!!.. إسلام سيصل بعد دقائق.. كيف كانت ليلتكَ أمس مع الدمياطي؟

منحت هاتفها لأمجد وهي تقول:

ـ سجلت اعترافات وصورت هذيان رجل مريض.. فلتشاهدوا فقد أحصل على قبلة أخرى كمكافأة.

استعد أمجد لتخزين الاعترافات والهذيان وقال أبو الدهب لسمر:

ـ لن نشاهد الآن وقد لا نحتاج المزيد من التسجيلات.. لكِ قبلة الليلة من شخص آخر.. انظري للقادمين هناك؟

كان هاني برفقة إسلام يهبطون نحو الشاطئ.. وقفت سمر ودقات قلبها تضرب مدًا وجزرًا كأمواج بحر ثأر.. همست:

ـ أخي.. هاني.

تحدث إسلام هذه المرة:

ـ هذ البطل يستحق مقابلة تليق به.

اقترب هاني وضم سمر بساعديه.. قال بصوت مالح:

ـ تأخرت عليكِ.

عاندت حتى تنطق:

ـ من أنا حتى تعاني وتترك أسرتك لسنوات يا هاني؟

وضع رأسها بين كفيه كالقابض على جوهرة ثمينة.. نظر في عينها وقال بقوة:

ـ أنتِ أسرتي.. أنتِ قبل الزوجة والأولاد.. ما كان يجب أن أغيب.. ما عانيته عقاب أستحقه.. أخبرني إسلام عن مغتصبك وسجانى.. سأنتقم لكِ أنتِ فقط..

قاطعته:

ـ يكفي ما كان يا هاني.. عُد إلى زوجتك وأولادك.

جلس وجلست.. نظر للمدى البعيد:

ـ لا أدري كيف هم الآن.. ودعتني زوجتي في المطار منذ

زمـن بعيـد.. لا أعلم هل تفطن عقلها للذهـاب للخارجية ومن ثم سـفارة بلدها في القاهـرة أم لا؟.. لكن من المؤكد أنهم اعتـادوا غيابي.. لا مانع من غيـاب فترة أخرى من أجل انتقام يزيل مرارة ما فات.

ـ عندما نعود لبيتنا ستحدثني عنهم.

ـ دعينا الآن نجالس الشباب.. أريد أن أعلم كيف ومتى ينتهي هذا؟

اقتربـا من أمجد وأبو الدهب وكان إسـلام يجلس عند مقدمة المركب فاقترب هو الآخر.. قال أبو الدهب:

ـ أرانـا وفقنا إلى الآن وحققنا مكاسـب عظيمـة.. ما زلنا في حاجـة للكثير من العمـل والتركيز.. لن يعود هاني إلى بيته الآن.. لا بـد أن نحـاذر ولا نظهـر معًا إلا في هـذا المركب.. تواصلنـا دائمًـا يكون مـن خلال "الواتسـاب" لأنـه الأكثر أمانًـا.. سـيلازمني هانـي في عملي مـن الغد.. سـيظهر أمام الدمياطي بصورة رسـمتها له وسـأدله عليها.. بمجرد أن تعود نـور للقاهـرة سـيكون انتقامنا.. أبشـركم بقـرب قدومها.. سـيكلفنا الأمر أيام لا أكثر.. الحزب أصبح شـيئًا عظيمًا.. نستعد للانتخابات البرلمانية بثقة..

صمت وأشعل سيجارة ونظر إلى أمجد وأكمل:

ـ كيف هي نور في نيويورك يا أمجد؟

ـ تبكـي.. ما كنت أظـن أن تبكي يومًا فتاة تمتلك كل هذا الكبرياء والعنفوان..

قاطعه أبو الدهب مهونًا:

ـ جميعنـا هنـا علـى الأرض نبكي.. فـي الفضـاء فقط تجف عيوننا ولا نسـتطيع البكاء.. أخبرني عن شـيء يسـاعدنا يا

صديقي فبكائها كان أمام حبيبها.. نحن أصدقاؤها.

أدرك أمجد هدف أبو الدهب فقال:

ـ يبدو أن عائقها في العودة المطار هناك.. السفارة والخارجية الأمريكية يرفضون عودتها.. هكذا أخبرتني.. تعرفت على شاب مصري اسمه خالد.. عرض عليها العودة بطرق مريبة.. قالت إنه يستطيع أن يفعل كل شيء بصورة غير شرعية.. تسألنا هل تعتمد عليه أم لا؟

ربت أبو الدهب على كتف أمجد وقال:

ـ هذا الأسبوع الذي بدأ برؤية هاني حرًا طليقًا سينتهي برؤية نور.. أنا ذاهب إليها.. سأحل ضيفًا على مؤتمر يجمع الكثير من السياسيين حول العالم.. ستحتفي أمريكا بمحمد أبو الدهب.. أصغر رئيس حزب في العالم.. هذه هي الديمقراطية التي تعجبهم.. هناك سألتقيها فاجعلها تنتظرني.. وهناك سنختار طريق العودة.. اشتقت أنا الآخر لها.. ولتعلم أنني سأقبلها شوقًا وحبًا فلا تغضب.

قال أمجد مرتجيًا:

ـ أسافر معك يا أبو الدهب.

تدخل إسلام العارف بقلوب المحبين:

ـ فليذهب معك أمجد يا أبو الدهب.. ما المانع؟

لم تتحمل سمر هي الأخرى وهن أمجد ولهفته.. قالت لأبو الدهب:

ـ اعتدناك قاهرًا للصعاب يا أبو الدهب.. يمكنك إزالة الموانع إن وجدت ليرافقك أمجد.

قال أبو الدهب:

ـ لو تدركون لماذا أنا من يقهر الصعاب ويزيل الموانع والعقبات

مـا نصحتمونـي بهـذا.. قراراتـي خالصـة تأتيني مـن العقل.. قلوبكـم عبء عليكم وتملأ أيامكـم بالخيبات وبقدر هذه الخيبات كان عقلي.. مشـينا طريق كنتم فيه مطيعين وعلى قـدر كبير من المسـؤولية.. عارضني إسـلام مرة لأنه أحب.. عندما أيقظت عقله اهتدى.. والليلة يترجني أمجد..

صمت ينظر لأمجد نظرات ود وإخلاص ثم أردف:

ـ أنـت تدرك يـا أمجد أنك كنـت دومًا صديقـي وأخي وكل عائلتي.. لسـت في حاجة لكلمات تدلل على ذلك.. اتركني أدخـل نيويـورك متحررًا من الجمال والحـب لأعود لك بكل الجمـال وكل الحـب.. لم أرفـض لك طلبًا من قبـل.. رفضي الليلة شيء يؤلمني..

قاطعه أمجد بعيون لامعة كالنجوم:

ـ هـون عليـك يا أخي.. مـا أردت إلا أن أكون لـك خير الرفيق والمعين في سفرك.

علت ضحكات أبو الدهب فجأة.. قال:

ـ لا أصدقك.

قالت سمر هي الأخرى:

ـ وأنـا أيضًا لا أصدقك.. أبو الدهـب محق.. أنت فاقد الكثير يـا أمجـد.. لا تغضب ولكنـك في هوان أنت تـدرك مداه ولا تستطع إخفائه.

تدخل إسلام:

ـ انتظر يا أمجد.. ولنمضي في خطتنا كما رسمها أبو الدهب.

أراد هاني مشاركة الأصدقاء حوارهم.. قال:

ـ أنا لسـت على دراية بكل شيء.. لو كان لي رأي فأنا أفضل

بقاء أمجد هنا.. سفره مع أبو الدهب سيكون موضع تسأل وشيء دخيل على رحلته للمؤتمر.

قال أبو الدهب وقد استرح بعض الشيء:

ـ قبل نصف قرن كان من يحترق بيته وتشتعل فيه النيران أمامه 17 دقيقة للنجاة من الموت تفحمًا.. أما اليوم يمهلك الحريق ثلاث دقائق فقط ليس أكثر للنجاة.. هذا بسبب الأجهزة الحديثة التي تشتعل بفخر وأيضًا المفروشات التي تلتهم النيران بنهم.. العالم الجديد سريع وفي حاجة إلى عقل يقظ وسرعة بديهة بحجم سرعته أو أسرع.. لهذا وجب علينا الحذر.. تحركوا تحت الكاميرات والأقمار الصناعية بثقة ما دمتم تعلمون أن هناك كاميرات وأقمارًا صناعية.

قال أمجد في خجل:

ـ لقد أيقظت عقلي كما أيقظت عقل إسلام من قبل يا أبو الدهب.. عندما تلتقي نور أخبرها أنني كنت أود العدو فوق الصخور والغوص في قاع المحيط وصولًا إليها.. أخبرها أن قلوبنا لا تجيد التدبير وأن عقلًا كعقلك أدرك ذلك.

ابتسم أبو الدهب ومال نحو أمجد وهو يقول:

ـ لا تنشغل بأمر كهذا.. نصف بكائها كان من أجل معاناتك أنت.. هي تدرك ما نحن فيه.. لا تنسَ أنني كنت شريكك في الوصول إليها.. لطالما أرهقتنا في الليالي بسبب طبيعتها الجميلة.. فتاة مثل نور إن أحبت تستطيع أن تتطلع لحبيبها من بعيد وتهتف باسمه علّه يسمع وتبكي لأجله علّه يهنأ.. لكن هذا لا يمنع أن أقبلها مرتين.. مرة من أجلك ومرة من أجلي أنا..

قاطعه إسلام بمرح:

ـ وثالثة من أجلي أنا الآخر.

قال أمجد لإسلام بنبرة كلها دهاء:

ـ أنت الآخر صرت مسكينًا مثلي.. فلا حديث ولا قبلات.

نظر إسلام نحو سمر الساكنة في حضن شقيقها ولم يجد الكلام فصمت.. ساد صمت فشعر هاني بالحرج وأحست سمر غباء أمجد.. تدخل أبو الدهب في الوقت الحاسم.. قال:

ـ الحب وحده يا هاني من خلصنا وخلصك.. هؤلاء الشباب قلوبهم نقية ولا تبحث إلا عن حياة كالحياة.. إسلام أحب سمر فسخر ليله ونهاره لأجلها فهل هذا يغضبك؟

قال هاني وهو ينظر لإسلام:

ـ لماذا الغضب.. هذا شيء يسعدني.. إسلام يستحق فتاة كسمر.. سيكون زوج على قدر المسؤولية وستكون سعيدة معه.. لا شك في ذلك.. لقد فوت الفرصة على الجميع وقص أمامي حكايته المريرة وصولاً لعلاقته بسمر.. تغزل فيها أمامي ولم أغضب وأعجبني غزله.. إن لم نغفر لبعضنا البعض فلن يغر لنا أحد..

صمت برهة حتى تفطن لحيلة ذكية.. قال وكأنه يتدبر شيئًا:

ـ لكني أعتقد أنه أحب أسماء ـ حبه القديم ـ أكثر.

فرك إسلام فروته وسمر تختلس النظرات إليه في غضب.. قال أمجد:

ـ يشهد بذلك أبو الدهب.

قال أبو الدهب:

ـ في الحقيقة صنع حكاية لن تتناساها إمبابة.

تشجعت سمر وقتلت حيلهم بكلمات منمقة:

ـ هذا يعجبني ويسعدني ويجعلني أهتم بقلبه وأعوضه ما فات.

ابتسم إسلام بفخر وثقة وتمنى لو استطاع الانحناء أمام سمر..

قال محذرًا:

ـ أصابكم ما أصابكم ولم أتفوه بكلمة واحدة.. فماذا لو نطقت.. لا تورط نفسك يا هاني في حيل لا طائل منها فقد حاولوا كثيرًا وفشلوا.

قال أبو الدهب:

ـ ما أصابني إلا المزيد من الفخر والإعجاب يا ابن حارتي.

قالت سمر بصوت طفولي:

ـ أنت مراوغ ومرهق كطفل يهرب دائمًا وقت العقاب يا أبو الدهب.. لا مأمن منك.. كيف ترى قائدًا يتلاعب بمشاعر جنوده يا إسلام؟

قال إسلام داعمًا سمر:

ـ أراه مخطئًا ولا بد أن نبحث له عن فتاة تليق به.. ثم نهيئ الأجواء من أجل قصة حب تجمعهم.. ومن بعدها نضرب كما يضرب بمكر ودهاء.

قالت سمر:

ـ وماذا عن أمجد الذي يشجعه دائمًا:

رد إسلام:

ـ ننتظر قدوم الحسناء.. ونتلاعب بهما في الليالي معًا.

نظرت سمر لأخيها وشدت على زنده وهي تهمس:

ـ أما هاني فليفعل بنا ما يريد.

قال أبو الدهب وهو ينظر للشاطئ:

ـ سهراتكم هدنة مع الحياة.. أدامها الله علينا.. ستكتمل بحضور نور.. وسيحتفل بنا النيل.

* * *

غرد أبو الدهب على موقع التواصل الاجتماعي «تويتر».. مقتبسًا مقولة القائد الألماني «روميل»..

«القائد الناجح هو الذي يسيطر على عقول أعدائه قبل أبدانهم»..

بعدما غرد للمتابعين الذين تفاعلوا مع التغريدة بشكل مثالي.. تذكر أن الأمر انتهى بثعلب الصحراء للانتحار.. فكر في حذف التغريدة ولكنه عدل عن الفكرة.. لم يحب أن يظهر أمام المتابعين في صورة رئيس الحزب المشوش والمتردد رغم أن مقولة روميل لا تتناسب مع نهايته.. بعد لحظات اهتدى.. تذكر كهف روميل بمرسى مطروح وقراره الذكي في اتخاذ كهف بمدخل في قلب الصحراء ومخرج يقود للبحر.. تعجب من قدرة القائد العظيم على اختيار القرار المناسب في أوج المعارك.. في الصحراء انتصار وإن لم يكن ففي البحر فرار.. هذه هي الخطة المثالية.. فصحراء مصر كانت معركة غير حاسمة وميادين الحرب عديدة وفي حاجة لقائد بحجم رومل وإن هُزم..

عصب أبو الدهب رأسه بكفيه وهو يحدث نفسه:

ـ التفاصيل ستأكلك يا أبو الدهب.

ترك الهاتف وأزاح جسده المثقل بسهرة لم تخلُ من شيء.. ترك الفراش وتهيأ لمقابلة الدمياطي بعد أن يذهب ومعه هاني لمقر الحزب أولًا.. سفره لنيويورك يأتي في وقت حرج.. لكنه يدرك أن الضربة الكبيرة في حاجة إلى مناسبة أكبر.. الانتخابات البرلمانية بالنسبة للدمياطي هي كل شيء.. سيسافر ويعود قبل التصويت بساعات.. تمكن من إدارة حملة انتخابية تكلفت ملايين الجنيهات وهو يطفو فوق سطح النيل مشعلًا تبغًا متخمًا بالحشيش ولم يبالِ.. مؤتمرات تبدو من بعيد أفراحًا وليالي ملاح

ومقعد رئيس الحزب خالٍ..

في الفندق الكبير أصبح أبو الدهب شخصية يحتفي بها الجميع.. يتوددون إليه بتسول.. جلس في ركنًا بعيدًا هادئًا منتظرًا الدمياطي إلى أن جاء بملامح جادة.. جلس الدمياطي وهو يقول:

ـ سفرك لنيويورك سيكون موضع اهتمام من الجميع.. هل تعي؟.. الجميع ولا استثني أحدًا.. كن كما اعتدناك.

قال أبو الدهب بثقة:

ـ بداخلي طموح جامح ليس له حدود.. ذكرتني مرة بالقدر عندما جمعنا في قصر البارون.. دعني أذكرك لمرة.. دلني القدر على الطريق بشكل مخيف.. إثارة ووعيد ثم عقاب تسبب في معناة.. شيئًا يشبه الستارة السوداء التي تخفي نجمتك المفضلة قبل أن تتكشف فاجئة.. أريد أن أطمأنك.. تعلمت منك أن الطموح الشخصي يبني دولة.. سأكون يومًا ما أريد ولن أفوت الفرصة.

قال الرجل باهتمام:

ـ هي أيام لو مرت كما نتمنى سنصبح معًا ما نريد.. لن أبخل عليك بشيء.. التوتر في هذه لأيام وارد والقلق مفيد.. إلى الآن كل شيء يمر بسلام.. نستطيع أن نقول إننا نضع أيدينا على الكثير من المقاعد قبل أن تبدأ الانتخابات.

قال أبو الدهب بدهاء:

ـ ألا ترغب شيء أجلبه لك من نيويورك؟

ـ أتراني في حاجة إلى شيء.

ـ نعم.. شيئًا يعيد إليك الشباب الذي توارى خلف منصبك.

ـ ماذا تقصد؟

ـ منشط جنسي بجودة أمريكية يعيد إليك الحسناء.

تعكر الرجل:

ـ كيف تجرؤ..

قاطعه أبو الدهب:

ـ ولماذا لا أجرؤ؟.. أنا رجلك يا معالي الباشا.

ـ وليكن.. هذا شيء ليس له علاقة بما يجمعنا.

ـ اتركني أتقرب إليك أكثر.. سأمنحك ما يجعلك تمنحني الثقة دومًا.. أريد أن أكون رجلك الأمين الذي لا يعجز.

هدأ الرجل يتدبر كلمات أبو الدهب.. بعد لحظات نطق:

ـ فلتعلم جيدًا يا أبو الدهب أن من أرسلك لأمريكا ليس بعاجز على جلب شيء مثل الفياجرا من هناك.. لم أنتظرك فأنا حقًا أعاني.. هذا دفعني للبحث في الأمر.. هل تعلم أن من اكتشف الفياجرا كان يبحث في معمله عن دواء للقلب.. الدواء الأكثر مبيعًا في العالم اُكتشف بالصدفة.. مكتشفه كان كمن خرج للبحار بحثًا عن الهند فاكتشف أمريكا.. أمريكا صانعة الفياجرا بالصدفة هي نفسها اكتشاف الصدفة.. أنت الآخر اكتشاف الصدفة..

صمت الرجل يشعل السيجار.. ثم أردف:

ـ قال صانع الفياجرا أن صناعته دواء يحتاج استشارة من طبيب ولم يستشر أحد الأطباء.. افتضحت أسرار الرجال بكبسولات عجيبة.. هذا العالم بات يخجل أمام المرأة.. ما السبب في رأيك؟

لم يتوانَ أبو الدهب.. أجاب:

ـ العالم أصبح عنيفًا.. عندما تبذل مجهودًا لا بد أن تضعف

وتفقد شيئًا من قواك.. هكذا أصبح الرجال عند عتبات النساء.. بدلوا العاطفة بالقوة المفرطة ففقدوا كل شيء.. لست في حاجة لعشيقة حتى تمارس الجنس بعاطفة.. ولست في حاجة لقوة حين تمارس الجنس مع ساقطة.. يبقى الجنس شيئًا لا يتبدل وإن تعددت أشكال النساء.. وحدهم العشاق من يمارسون الحب بمثالية.. يسمونه الحب.. الجنس هو قمة الحب وثمرته.. هذا الشيء المعقد أكبر من صدفة في معمل وأنقى من صدفة كصدفة كولومبوس.. بكل ثقة وفخر أخبرك أنه في حاجة لصدفة كالصدفة التي جمعتنا.

تفاخر أبو الدهب في جلسته.. أردف:

ـ لو أمرت أخبرتك بما لم يخبرك به الرحالة والأطباء.

بزغت عين الدمياطي وتطفل الشعر فوق رأسه واقفًا وتطلع بكل جوارحه وطلت معها جوارح الليل الذي أنقضى في عبث.. قال:

ـ أخبرني يا رجلي الأمين.

ـ الفتاة التي كانت معك في القصر المخيف مثالية.. امنحها أمرك ومعه قلبك على الهامش.. امطر قدميها بالقبلات وأنت تنزع عنها كعبها العالي واترك وضعك المرموق أسفل نعليها.. لا بد أن تبدو أمامها كمن فنى عمره بحثًا عن كنز ثمين حتى وجده فوق أظافر أقدامها.. إن أجدت هذا فأنت وجدت الطريق.. ستتعلق أطرافك الأربعة في الهواء محمولة على انتصابك العظيم وهو يشق الأرض.. عندها أصنع من أطرفك ريش مروحة وأجنحة صقر.. حلق في سموات الجنس حتى تصل النجوم الموزعة على أرداف فتاتك.. عندئذ تماهي مع سماواتك بعد أن تتلامس مع نهدين مغرورين.

سال لعاب الدمياطي وتلجلج وهو يسأل:

ـ متى تعلمت هذا؟!

أدرك أبو الدهب أنه سيطر على عقل عدوه فأرسل ابتسامة خفية للقائد روميل.. قال:

ـ ليس السؤال متى.. بل لماذا؟

ـ إذًا لماذا؟

ـ قديمًا سئلت امرأة تُدعى "المعربدة" وكانت تدعي أنها أعلم أهل زمانها.. أين تجدن العقل يا معشر النسوان؟.. أجابت: بين الأفخاذ.. والشهوة؟.. أجابت: في ذلك الموضع.. أين تجدن حب الرجال ومقتهم؟.. أجابت: عند ذلك الموضع.

أمسك أبو الدهب فنجال القهوة يتأمله.. أكمل:

ـ توارثنا قصص نساء أسطوريات.. معتقداتنا تقول إنهن آلات جنسية جبارة يجب على الرجال مجاراتهن.. نستطيع أن نجاريهم في حالة واحدة..

قاطعه الدمياطي متطلعًا:

ـ ما الحالة الواحدة؟

ـ الابداع.. نعم الإبداع وحده من ينصفنا نحن معشر الرجال.. إن معاناتك لها جذور فلا خجل ولا غضب.. قديمًا كانت الجزيرة العربية تهذي.. ويقال إنه كان يجتمع عشرة من الرجال من أجل امرأة.. كان من حق المرأة أن تحصل على زوجًا إضافيًا أو اثنين أو ثلاثة.. البدل كان متاحًا حيث يبدل الرجلين زوجتيهما.. كان يمنح الرجل أيضًا زوجته لفارس أو شاعر.. كانت الرايات الحمراء إشارة من المرأة إنها تنتظر رجلًا..

ارتشف أبو الدهب من قهوته وبعدها كان سؤله الساخن:

ـ أتستطيع الآن أن تبدل عجزك؟

تدبر الرجل قدرته.. أجاب:

ـ سـأتخلى عن المنشـطات وأحصل على جنـس حقيقي.. أنت الإبداع وأنت رجلي الأمين.. يا لك من موهوب.

سأله أبو الدهب من جديد:

ـ متى سيكون ذلك؟

تشوش الدمياطي:

ـ هل الوقت يدلل على شيء.

ـ بالطبـع.. اتركنـي أختار لك الزمان.. أمـا المكان فاتركه للفتاة.

ـ في رأيك.. متى سيكون الوقت مناسبًا؟

صمت أبو الدهب يتفقد الأيام.. قال:

ـ لا بـد أن يكـون ذلـك فـي أقرب فرصة.. سـأغادر غـدًا إلى أمريـكا.. لا تنشـغل بهذا الأمر إلى أن أعـود.. لدينا معركة انتخابيـة تبدو مثيرة وهي الأولى لا شـك.. اليوم هو السـبت.. سـأعود الثلاثاء وسـيبدأ الاقتراع صباح الأربعاء حتى غروب شمس الخميس.. أتعرف أين الوقت المناسب في كل هذا؟

ـ أين يا أبو الدهب؟

انتشى أبو الدهب كمن يحتفل بنصر.. قال:

ـ واعد الفتاة عند ليل الثلاثاء ولا تتركها إلا مع فجر الأربعاء.

تعجب الدمياطي:

ـ هل هذا شيء معقول!

ـ نعـم.. حـرر جسـدك يـا معالـي الباشـا حتـى تسـتطيع إدارة معركتك.. نصف المعركة انتهى والنصف الآخر سـيكون أثناء التصويت.. أنت تعلم جيدًا كيف تدار العملية الانتخابية

في بلدنا.

ـ سـأفعل.. ثقتي بك لـم يعد لها حدود.. لكـن لماذا لا تحضر المؤتمرات الانتخابية؟

ـ لسـبب واحـد.. ينظر إلى النـاس بإعجـاب يصاحبه غموض.. يتسـاءلون كيـف يبـدو الشـاب الـذي يدير حـزب بكوادر ومقرات وشـعبية كبيرة.. لا أريد أن أزيل هذا الغموض الذي أراه أعظم نظارة سـوداء تخفـي كل الدهاء والرؤية الثاقبة.. ليس زهو أو غرور أو شـيء من هذا القبيل.. قد يكون شـيئًا من السياسة التي تعلمتها منك.. لماذا تبقى أنت في الظل وأن مصدر الضوء؟

ـ أنـت أدركـت السـبب.. ولكـن هناك شـيئًا آخـر.. منصبي أكبر مما تتخيل.. لا أخيفك بل أطمئنك.. طريقك سـيقودك للشـهرة بعكس طريقي الـذي منحني الثراء والسـلطة التي ليس لها حدود.. لن تسـتطيع أن تفعـل ما يحلو لك أيها النجم اللامـع.. أما أنا سـأواعد الفتاة المثالية مسـاء الثلاثاء وحتى مطلع فجر الأربعاء.

ابتسم أبو الدهب:

ـ سأكرر سؤالي.. ألن ترغب شيء أجلبه لك من أمريكا؟

تعالت ضحكات الدمياطي وقال يداعب أبو الدهب:

ـ منحتني كل شيء يا فتى.. لا تتأخر وعُدْ في الموعد.. لدي ما يشغلني بمجرد عودتك.

ـ لـن أحمل لك شـيئًا بل أشـياء.. لطالما صنعت الدهشـة على ملامحك.. ستدهش مجددًا.

خرج أبو الدهب من الفندق قاصدًا إمبابة.. سيودع الأصدقاء ويشبك

معهم خيوط النهاية.. نهاية رجل بحجم دولة تقتل وتغتصب وتسجن وتشرد أولادها دون أن ترى في ذلك ما يجعلهم يغضبون وينتقمون..

في المركب وقف أبو الدهب كالمدير الفني الذي يعد فريقه للنهائي الموعود.. الجميع ينصت باهتمام.. سيكون لسمر دور كبير.. أمجد سيبتسم من جديد ويضحك ضحكات كالتي كانت في قصر البارون.. لن يبحث عن مهرب هذه المرة.. أما هاني سينسى شقاء الليالي المظلمة..

قال أبو الدهب أمام هاني وإسلام وأمجد وسمر:

ـ كيف نحتفل عند الانتصار؟.. أنا لا أعرف ولم أفكر في هذا الأمر.. في اليابان يحتفلون بطرق تليق بنصرنا.. في المكسيك أيضًا.. فلتحملوا عني هذا الأمر.

قال أمجد:

ـ فلنترك الأمر لنشوة النصر.. حتمًا سنحتفل بطريقة عظيمة.. حتمًا ستكون نهاية عظيمة.

قالت سمر:

ـ نزين المركب بالورد.. ونرتدي الأناقة ونتعطر بباريس.. نرقص ونغني.. أتعجل هذه اللحظة.

قال إسلام:

ـ ماذا لو غرقنا في زجاجة نبيذ وأحرقنا أفدنة التبغ والماريجوانا.. لن أبخل عليكم في هذه الليلة.

قال هاني:

ـ نشعل النيران في الماضي البأس.. نستقبل عالم جميل.. نضحك ونتعانق ونسجل نصرنا على أحجار فرعونية.

* * *

أعـدَّ أبـو الدهـب كل شـيء لرحلـة أمريـكا.. حـارب الرهبة بالقـراءة.. قـراء عن نيويـورك بنهم.. كسـر حاجز الزيـارة الأولى مسـتعينًا بمكتبته المبعثر محتواها.. تطفل على سكان نيويورك عن طريق مواقع التواصل.. بحث عن مرشـد سـياحي حتى وجده.. أخبر نور بقدومه فتلهفت رؤيته..

فـي مطار جون كندي اسـتقبل أبـو الدهب نيويـورك بصرخة مكتومة:

ـ أهـلًا يا بلد الرصاص والدولار.. لطالما نظرنا إليكِ حالمين.. ولطالمـا نظرتي إلينا من مسـورة مسـدس.. نـراكِ جنة وأنتِ تشعلي فينا النار.

كانت نور في الانتظار حتى طل أبو الدهب بحقيبة يجرها على الأرض.. هتفت باسـمه فرأها بحسـنها المعهود.. عانقته وتعلقت به حتى بللت قميصه بالدموع وهي تقول:

ـ كيف صار أمجد في غيابي يا أبو الدهب؟

رد مداعبًا أملًا في تجفيف الدموع:

ـ صادق فتاة حسناء من إمبابة.

ـ تكذب يا أبو الدهب.. أمجد لا يرى الحسن إلا في وجودي.

ـ بلى.. حسناوات إمبابة لا يعجزن.. قلب حبيبك لم يتحمل.

منحته نظرة لو كانت لأمجد لانهار أمام شلال مفاتنها.. قالت بثقة:

ـ تحرك خلفي يا ابن إمبابة ولا تختلس النظرات وقاوم الجمال الـذي عـذب صديقـك إن اسـتطعت.. يبـدو أنك مـا جئت إلا لتشقيني.

تحـرك خلفها وهو يهمـس بالغزل ويلعن صديقه الذي أحب فتاة

من نخيل ارتوى باللبن والعسـل.. في السـيارة قال لها وهي تسـتعد لمغادرة أرض المطار:

ـ لا أدري هل نقاتل من أجل الجمال؟.. أم نقاتل من أجل الثأر؟

ـ ماذا تقصد؟

ـ أنت جميلة كحلم يقظة.. عندما رأيتكِ لأول مرة أدركت أن أمجد يشاغب آلهة الجمال متجاوزًا المعتقدات والأزمنة.

ابتسـمت بصفـاء بـدد لـون عيونها الباكيـة.. قالـت وهي تدير محرك السيارة:

ـ لديـك صديـق يـرى حبيبتـه بطـرق لـم تكـن مـن قبـل.. لم أسـمع عن عاشـق يكوي الألم كميص ويتركه في خزانة الذكريات.. كنت رافضة بشده فأحببته بعنف..

صمتت حتى ترسم وجهها بالتمني واللهفة.. أردفت:

ـ خذني إليه يا أبو الدهب.. ستصنع معروفًا لقلوب تنزف وتتوجع.

قال بود:

ـ ما جئـت إلا لأجلك.. أخبريني عن الشـاب الذي عرض عليك المساعدة.

ـ خالد.. اسـمه خالد.. مصري ويحمل جنسـيات عديدة.. يقول أنه يستطيع أن يبدأ يومه في قارة وينهيه في أخرى.

ـ أين هو؟.. أريد أن أراه الليلة.

ـ حملت موبايل لأجلك.. سجلت عليه رقم خالد.

تأمـل أبو الدهب نيويورك من نافذة السـيارة.. قد يعود ويكتب عنها مثلما فعل كثيرون.. أدرك من الوهلة الأولى أن كل ما كُتب عـن المدينة لـم ينقل إلا القليل.. قبل أن يتعمـق أبو الدهب في قلب المدينة.. أدخلته نور السيارة من جديد بقولها:

ـ دقائق وينضم لنا خالد.

ـ بهذه السرعة.

ـ إنهـا نيويورك يا صديق.. كل الطـرق تؤدي لكل الميادين وفي الميادين تجد حاجتك.. هندسة معمارية فريدة وعبقرية.. لا شك الزحام موجود.. وكيف لا يوجد وهنا يعيش 9 ملايين شـخص.. ولكنه ليس كزحام القاهرة.. زحام القاهرة حارق صيفًا وشتاءً.

ـ أريـد فارق جوهـري بين مصر أمريكا.. فـارق جوهري غفل مثلي عنه.

تأنـت نور وتخلل صمتهـا نظرات في الأبنيـة والأرصفة.. نظرت لأبوالدهب وقالت:

ـ سـأخبرك بشـيء يميـز أمريـكا عـن العالم.. ليسـت مصر فقـط.. لا أعلـم هل تفطنـت إليـه أم لا.. هل تعلم لمـاذا نقول الإدارة الأمريكية بينما نقول الحكومة المصرية؟

ـ حقًا!.. لماذا؟

ـ هنـا الدولة الأمريكية بحجم قارة.. هي حقًا قارة يسـكنها العالـم أجمـع.. مـن كل دولة ومـن كل مدينة بـل ومن كل قبيلة سـتجد لها سـفير هنا في أمريكا.. مساحة عملاقة يا أبو الدهب.. هنا شـركات الطيران المميزة تعمل بالخطوط الداخلية بين المدن.. الشـركات التي تحلق فوق المحيطات والبحار هي الأضعف والأقل جودة.. لك أن تتخيل أن المسافة بين واشـنطن وسـان فرنسيسـكو مثـلًا هي نفس المسـافة بيـن أبـو ظبـي في دولـة الإمـارات والـدار البيضاء فـي دولة المغرب.. باختصار ما أود قوله إن هذه الدولة شـرقها محيط وغربهـا محيـط وبينهما مئات القوميات والأعـراق والأديان.. صنعوا معًا شـركة مساهمة.. كلّ حسب قدرته في امتلاك

الأسـهم.. الشركـة في حاجة إلى إدارة بالطبع.. إدارة منتخبة لهـا سـلطات يعرفها الجميـع.. في مصر يقولـون هذا ضابط شـرطة وخلـف قولهم معـانٍ وهواجس كثيـرة وربما خوف.. هنا لو قولنا ضابط شـرطة نقولها قاصدين المعنى الحرفي.. هذا ضابط شرطة يجلب الأمن ولا يخيف.. أخدعك إن قولت أن أمريـكا ليس بها أشـرار.. ستسـخر مني وتقـول إنها بلد المافيا.. حقًا مافيا وقد تصل مافيا من حواري شيكاغو إلى الحكم.. الفتونة في هذه الحالة سـتكون على العالم وليس على سـكان أمريكا.. بحجـم الرعب الـذي تصنعه الإدارة الأمريكية في العالم يكون الأمن هنا.. نفس الأمر بالنسـبة للفقر والرفاهية.. هذه إدارة من أجل الشـعب على تنوعه حتى على العجائز والمتسولين والمافيات..

قاطعها أبو الدهب:

ـ زيارة مثل زيارتي لن تفيد.. لن أستوعب ميلًا من هذه القارة.

قالت نور وهي تتلفت عبر نوافذ السيارة:

ـ هذه سـاحة تايمز.. سـجل في ذاكرتك فهذه السـاحة مسرح لوكالات الأنباء دائمًا.

بعد لحظة همست لأبو الدهب:

ـ انظر للشاب القادم هناك.. هذا خالد.

تأمل أبو الدهب القادم.. عندما اقترب دُهش.. سأل نور:

ـ من هذا؟!

ـ خالد.. الذي عرض المساعدة.

اقترب خالد وصافح نور.. قالت نور لخالد وهي تشير لأبو الدهب:

ـ هذا أبو الدهب.. أحد أصدقائي الذين حدثتك عنهم.. جاء من

القاهرة منذ دقائق.

دار خالد حول السيارة ليصافح أبو الدهب:

ـ أهلا بك في نيويورك يا أبو الدهب.

بادله أبو الدهب التحية.. ركب خالد السيارة وهو يقول:

ـ اذهبي يا نور إلى مطعم «لو سيرك».

زمت نور شفتيها ونظرت لخالد نظرة سار يعرفها.. قال وهو يضحك:

ـ لدينا صديق وصل للتو من سفر طويل.. لن نبخل عليه أيتها البخيلة.

بدا أبو الدهب لخالد ونور غارقًا حتى سمائه في أمر ما.. بادره خالد:

ـ ما بك يا أبو الدهب؟

التفت له أبو الدهب بحركة جنونية.. قال:

ـ من أنت؟

ـ أنا خالد.

ـ ألم تراني من قبل؟

نظر خالد لأبو الدهب بتمعن.. نطق بعد لحظات:

ـ لم أراك من قبل.. أنا أعود إلى القاهرة في زيارات قصيرة وخاطفة.. أين سنلتقي؟

قال أبو الدهب لنور:

ـ أريد أن أتصل بالإنترنت.

منحته هاتفها وهي تتعجب وتترقب.. صمت أبو الدهب يتصفح شيئًا ما.. ظل طوال الطريق يحملق في النافذة الصغيرة.. في

المطعم وبعد أن جلسوا قال أبو الدهب لخالد:

ـ أين كنت في يناير 2011م؟

رد خالد دون تردد:

ـ كنت في القاهرة.

وضع أبو الدهب الموبايل في وجه خالد وهو يقول:

ـ انظر.

ابتسم خالد:

ـ هـذا أنا.. هذه الصورة كانت في ميدان التحرير.. شـاركت في المظاهرات.. هل هذا يغضبك.

ـ أنت في الصورة تحمل شاب أصيب في إحدى التظاهرات.

ـ نعم.. أتذكر هذا اليوم جيدًا.

منح أبو الدهب الهاتف لنور.. قال:

ـ أنـا المصـاب.. أنا من كنت تحمل.. أنـا من خلصته من أيدي الأمن المركزي.

بدت علامات الدهشة على وجه خالد ونور.. قال خالد:

ـ إذًا أنـت مدين لي.. لا تقلق أنا من سـيدفع الليلة.. في القاهرة امنحنـي وجبـة بالقـرب مـن النيل.. أخبـرت نور أننـي دخلت الميدان وقت الثورة.

ثار أبو الدهب في وجهه:

ـ يا لك من سـاذج.. لماذا تنظر للأمر هكذا؟!..

قاطعه خالد:

ـ ما بك يا أبو الدهب؟

ـ مـا بي أنا!!.. ما بك أنـت؟!.. ظللت بيننا أيـام وليالي وتحملت

معنا برد الشتاء.. خلصت الكثير من الموت.. كنت تمنحنا الطعام وتجلب لنا الغطاء والدواء.. كنت كالقديس بيننا.. ظنناك شيئًا من السماء.. هل تذكر الفتاة التي منحتها من دمائك عندما كانت تنزف.. ما زالت إلى اليوم تبحث عنك.. منحتنا شيئًا لم نكن نملكه.. المال والقوة والعزيمة.. لماذا رحلت وتركتنا.. ثورتنا كانت لتبقى لو بقيت.. كنت القوة عندما كان للثورة ساعد.. لا تستهين يا خالد بما قدمت.. ما زلنا نذكرك.. بعضنا يسميك باسمك وبعضنا الآخر يسميك بأسماء أخرى.. لكننا أجمعنا على دورك في الميدان.

لمعت عين خالد.. قال في أسى:

ـ أنا لو تدرك كنت عبئًا كبيرًا عليكم.. عندما كان الإعلام المصري يقول إن بالميدان خونة وبلطجية كنت أشعر أنهم تعرفوا على هويتي.. كنت كمن جمع المال الحرام وعندما أراد التوبة صار يبني المساجد والكنائس والمعابد.. لست مثلكم يا أبو الدهب.

بادله أبو الدهب الأسى وهو يقول:

ـ أنت لو تدرك كنت أفضل من فينا.. الثائر الضعيف لا يصنع إلا الخيبات.. في غيابك تفننوا في تعذيبنا.. أنا الآخر خائن للثورة والشهداء..

تدخلت نور:

ـ هون عليك يا أبو الدهب.. وأنت الآخر يا خالد.. عيونك ستنفجر.. أبكي لتغتسل.. الآن فقط وجدت شيئًا يغفر لك.. أنظر إليك بشفقة بعدما جلدتك بنظرات قاسية.

قال خالد:

ـ حقًا يا نور كانت صدفة الطائرة فكرة ذكية من القدر

ولعبــة لها مغزى مــن الأيام.. كُن رحيمًا يا أبو الدهب.. أرغب في صداقتكم.. أود أن أكون مثلكم.

قال أبو الدهب ساخرًا:

ـ مثلنا نحن!!.. هذه الفتاة المســكينة أجبرت على الخروج من وطنهــا.. وأنــا أجبرت على التورط في الفســاد.. فــي القاهرة أصدقاؤنــا لا يختلفــون عنا.. منهم من اُغتصبــت.. وهناك من سُجن دون وجه حق.. وهناك من تعرض لإهانة لم يشفَ منها..

صمت أبو الدهب يرسم علامات الاحترام لخالد.. ثم قال:

ـ نحن من نريد أن نصبح مثلك.

تدخلت نور حتى تفض اشتباكًا جديدًا.. قالت:

ـ دعونا من هذا الآن.. أريد أن أعود للقاهرة.

قال أبو الدهب:

ـ جئــت مــن القاهــرة بخطــط عديــدة.. كنــت أرى أن عودتك للقاهرة متاحة.. الآن أصبحت أكيدة.. مزقت كل الخطط.. سنترك الأمر لهذا المخلص.. أثق به ثقة عمياء.. ثقي به يا نور فلم نرَ منه إلا الخلاص.

بكى خالد.. بكى أخيرًا.. ترك مقعده وســار باتجاه التواليت.. قالت نور:

ـ أصبحت على يقين بأن شــباب مصر بؤســاء ولا أستثني أحدًا.. في إمبابة هم بؤســاء.. في نيويورك أشــد بؤسًــا.. حتى وهم في أشــهر مطاعم العالم يبكون.. كن رحيمًا يا أبو الدهب كما طلب خالد.

قال أبو الدهب:

ـ لم أقصد.. لقد أراد أن يغتسل كما طلبتي أنتِ.

جاء خالد.. لم ينتظر.. قال لنور:

ـ ترغبين في العودة بهويتك.. متى تفضلين العودة.

قال أبو الدهب:

ـ حدثني أنا.. أنا من يقرر.

ـ إذا قرر يا أبو الدهب.

همس أبو الدهب لخالد:

ـ لا تغضب مني يا رفيق.. لم أود إهانتك.. أردتك كما عرفتك في الميدان.

قال خالد:

ـ لم أبكِ منذ زمن بعيد.. فوجئت الآن أن ماء العين مالح.. حارق.. يسقط بثقل الجبل.. لا أعلم هل تعتذر أنت أم أشكرك أنا.

قال أبو الدهب بجمود:

ـ أريد نور في القاهرة خلال ساعات.. تركت القاهرة في الظلام ودخلت نيويورك في الظلام.. لا أعلم أين نحن الآن من آلة الزمن العجيبة.. أريد نور في القاهرة مساء الثلاثاء.. هل هذا ممكن؟

صمت خالد يتدبر الأمر.. قال:

ـ هذا ممكن لو تحركنا الآن.. قد ننتظر للصباح ثم نتحرك.. لكن هذه الليلة ستمنحنا فرصة لالتقاط الأنفاس.. ستكون رحلة طويلة وشاقة على نور.

نظر أبو الدهب لنور.. قال:

ـ تحركوا الآن.. لا تنسَ يا خالد أن تدفع للمطعم.

قالت نور:

ـ أريد أن أعرف كيف سأعود للقاهرة أولاً.

صرخ أبو الدهب في وجهها:

ـ ما الأمر يا نور؟.. هل أنتِ مترددة؟.. لم أنتظر هذا منك..

قاطعته:

ـ ليس الأمر كما تظن يا أبو الدهب.. كنت أترجاك من دقائق أن تعيدني للقاهرة.. كل ما في الموضوع فضول وتبين المصير.

قال خالد:

ـ سأخبرك يا نور.. سنتوجه إلى بيتك.. تحملين ما تودين حمله إلى القاهرة.. بالطبع نحتاج جواز سفر اختصارًا للوقت.. نترك السيارة فلسنا بحاجة لها.. نتوجه بعدها إلى بيتي فأنا بحاجة لبعض الأغراض ونحتاج سيارتي بالطبع.. سنقصد الحدود المكسيكية.. سنعبر الحدود بلا أدنى رهبة أو خوف.. في الطريق سنجد من يدلنا ويساعدنا.. ندخل المكسيك ونقصد المطار.. المطارات هناك سترحب بكِ.. أخبرتني أن الخارجية الأمريكية مع السفارة لدى القاهرة هم العائق.. سنبتعد عن سلطتهم.. في مطارات المكسيك تتعدد الرحلات نحو بيروت وأثينا.. نقصد إحدى المدينتين ومن هناك نتجه للقاهرة أخيرًا.

قال أبو الدهب لنور:

ـ ألديك مانع في هذا؟

نظرت لأبو الدهب نظرة عتاب:

ـ لا.. كل ما في الأمر أنكم لا تدركون ما أنا فيه.. سأترك أسرتي دون وداع.. سأعبر حدود دولتين في ليالٍ موحشة.. سأتخلى عن أصدقاء سبق وأن تخليت عنهم.. هذا كل ما

في الأمر.. هل يبدو الأمر هينًا؟

اقترب منها أبو الدهب.. قال يطمئنها:

ـ لا.. ليس الأمر هين بالطبع.. تستطيعي أن تعودي لأسرتك بعد أيام.. كوني على ثقة أنكِ لو دخلتي القاهرة بقوة فلن يخرجك أحد منها بالقوة.. هيا الآن وسنلتقي في القاهرة.

قالت نور لأبو الدهب:

ـ هيا معنا.. لن نتركك إلا عند الفندق الذي سيستضيفك.. ما كنت أود أن أتركك بمفردك.

بالقرب من الفندق الذي يستضيف ضيوف المؤتمر ودع أبو الدهب نور وخالد.. دخل الفندق كرئيس حزب ودبلوماسي.. نام متحررًا من أمر نور.. استيقظ على همسات خافتة صادرة من ضيوف المؤتمر.. في مطعم الفندق تناول إفطارًا أمريكيًا.. توجه على الفور للقاعة حيث سيلقي رئيس المؤتمر بيانًا يتبعه بعض الضيوف ومنهم أبو الدهب.. سيلقي البيان باللغة العربية.. سيرتجل معتمدًا على ذهنه الذي لم يخزله.. رتب أفكاره جيدًا.. منحه الدمياطي كلمة مكتوبه مزقها هناك في القاهرة.. قال لنفسه وهو يمزقها:

ـ لن يكون لدى الدمياطي متسع للوم والعتاب.

في المؤتمر كان أبو الدهب في الصفوف الأولى.. أنصت باهتمام لكلمة رئيس المؤتمر وكل الضيوف.. أراد أن يعرف النقاط المشتركة بينهم لينطلق منها.. دون النقاط المشتركة وأضاف عليها.. إلى أن جاء ذكر اسمه عبر الميكرفون بصوت سيدة حسناء.. تبينه بوضوح رغم أن السيدة تتحدث بلكنة بريطانية خالصة.. توجه للمنصة وهو يخفي التوتر.. وكان الخطاب:

السيد رئيس المؤتمر..

السيدات والسادة..

.. لكم كل التحيات والأمنيات الطيبة من شباب وطني «مصر».. أعتذر منكم لأني فضلت اللغة العربية.. لا بأس في ذلك.. أخبروني أن هذا ممكن وأن الترجمة فورية وبشكل احترافي.. يسعدني أن تكون اللغة العربية جزءًا من هذا المؤتمر العظيم وفي حضور الرئيس الأمريكي.. لم أتبين لكنة السيدة الفاضلة التي قدمتني لكم.. أود أن أقدم لكم نفسي بنفسي.. أنا محمد أبو الدهب.. أحد شباب مصر وفقط.. هذا يكفي.. أعلم أنني هنا لأنني أترأس حزبًا سياسيًا في مصر.. دعوا هذا الأمر فنحن في وطننا مقدمون على انتخابات برلمانية بعد ساعات وقد بدأ الصمت الانتخابي.. لن تتاح هذه الفرصة لباقي المنافسين.. هذه هي الديمقراطية التي تقدسونها..

أيها السيدات والسادة.. في يناير من العام 2011م اهتزت القاهرة وكل مدن مصر.. خرج الشباب وأنا منهم بحثًا عن وطن لم نجده إلى الآن.. وقتها كنا في الميادين وتوارد إلينا مديحكم ومديح معظم قادة العالم.. كنا حالمين.. تخيلنا أن التغيير وارد وإن تطلب الأمر تغيير سياسات العالم أجمع.. لمَ لا والعالم يشيد بنا.. تبدد كل شيء مع الوقت.. لا أعلم كيف هي نظرتكم نحوي الآن.. هل تنظرون إلى الفاشل في ميادين الثورة؟.. أم تنظرون إلى الناجح ميادين السياسة؟.. في بلادي نقول الأمثال الشعبية أكثر من أي بلد آخر.. تواترت عبر الأجيال أمثال نلجأ إليها دائمًا.. سأخبركم بواحد من هذه الأمثال.. نقول بالعامية " أهي ليلة وفراقها صُبح".. هذا المثل يحثنا على الصبر.. الليل هنا بمعنى الحلكة والسواد والمعاناة.. أما الصُبح فمعناه بدى واضح لديكم.. أود أن أخبركم أن سياستكم ما زالت تقتلنا ولا تبالي.. لا أستثني أحدًا وأنا منكم.. لا أستثني أحدًا والقتلى من بلادي وبلادكم.. أخبركم أيضًا أننا لم نيأس وما زلنا ننتظر الصباح.. سأترك لجدول أعمال المؤتمر التفاصيل ولن أفوت الفرصة لأذكركم بأشياء لا بد من

ذكرها.. سأبدأ من هنا.. من هذه القاعة المكيفة.. أرى أن درجة حرارتها مثالية.. لو كنا صادقين لانتفضنا كما ينتفض المشردون في برد الشتاء القاسي.. حتى لو كنا في طقس مثالي مثل هذا.. كل ما في الأمر أنكم قادة وخلفكم الجميع مدفوع.. يدفع الثمن ويجني ثمار قرارتكم.. أذكركم بأن السياسي أصبح ذا سمعة سيئة جدًا.. هذا صحيح.. نحن السياسيين نتعامى عن أشياء يراها الأعمى.. ونسمع ما نحب ونصم أذاننا عما لا نحب.. نصرخ بالفضيلة أحيانًا ونفعل الوضاعة غالبًا.. أعلم أن معظمكم يظنني باحثًا عن الزعامة من خلال خطاب.. أطمئنكم.. الزعامة شيء والسياسة شيء آخر.. الزعماء يأتوا من ساحات الحروب وميادين الثورة..

السؤال الآن.. لماذا نبدو بهذا السوء؟.. هل تجنى علينا أحد؟.. بالطبع لم يتجنى أحد.. نهاية هذا العام ستكون كنهاية العام السابق.. راقبوا الشاشات وانتبهوا لتقارير البرامج الإخبارية.. آلاف الموتى.. آلاف المشردين.. انظروا البؤس في عيون البائسين.. تبينوا الظلم على أوجه المظلومين.. كل هذا هو حصاد إنجازكم العظيم.. بابا نويل لن يحمل أوطانًا لمن فقدوا أوطانهم.. لن يحمل الأب والأخ والصديق الذي حرقه البارود والنار..

أودعكم الآن بالرجاء والأمل.. أتمنى أن نلتقي لأعوام أخرى.. بالتأكيد سنلتقي، فالشعوب لن تجد أفضل منكم لإدارة شؤون حكمها.. أمامي رجال تمنيت مصادفتهم.. رجال إن أرادت فعلت المستحيل.. أفعلوا هذا من أجل شعوبكم وأوطانكم وعالمنا الكبير".

أنهى أبو الدهب خطابه المرتجل.. ضج التصفيق في القاعة.. منهم من صفق بود ومنهم من صفق بغل.. أجاد الشاب وتبول فوق الشعر الأبيض.. رئيس الولايات المتحدة بدا عابثًا ومهمومًا.. هكذا يبدو رؤساء أمريكا عند قرب النهاية.. رأى الرؤساء الذين سبقوه

ينعزلـون ويهملهـم الإعــلام.. ربما يعوضــون ذلك بنشــر مذكرات مثيرة.. ينشــغل بها العالم لأيام.. أيام فقط.. يذهب رئيس ويأت آخر وتبقى بلاد العم ســام كما هي.. تغير الرؤساء ولا يغيرونها.. تحدد السياسات ولا يحددها أحد.. من يتحكم في أمرها مجهول ومعلوم وغامض وواضح.. هذا أمر مريب.. لكنه حقيقة.. بل قلب الحقيقة..

اهتز هاتف أبو الدهب على غفلة.. سمير الدمياطي من القاهرة.. ابتســم أبــو الدهب ولــم يتردد وفتــح الخط.. جاء صــوت الرجل من الشرق الأوسط بعنف:

ـ مــا اتفقنــا علــى هذا يــا أبــو الدهب.. يبــدو أنك تحــررت من خوفك..

قاطعة أبو الدهب:

ـ انتظر يا معالي الباشا.. حدث شيءٌ لم يكن بالحسبان.. فقدت الخطاب الذي منحته لي.. يبدو أنني تركته في القاهرة دون قصــد.. ربمــا يكون خطابــي المرتجل أفضل.. لم أســئ إلى أحد.. الجميع يشــيد هنا.. أجمعوا على أن نجاح المؤتمر جاء في يومــه الأول.. يقصــدون خطابي المختلــف والمميز.. هذا خطاب عاطفي وســيعجب المصريين.. ســيتغنون به.. ســترى ذلك في نتائج التصويت.

ـ وليكن يا أبو الدهب.. لم أحب أنا ما حدث.. هذا خداع.. لقد خدعتني.

ـ لا.. هذا ليس خداع..

ـ وما الخداع في رأيك يا أيها السياسي المشهور؟

ـ سأخبرك عندما أعود للقاهرة.

* * *

انطلقت سمر بسرعة جنونية نحو هدفها.. لطالما عاندت حركة الطريق ورسمت إطارات السيارة على الأسفلت.. قد تدخل في سباق سائق تاكسي يرجو نظراتها فتقصيه على غفلة.. اليوم ولأول مرة ينزل سمير الدمياطي من علوه ويركب سيارتها الصغيرة.. سرقته من كل شيء.. تخلى عن حرسة وعن عظمته.. كان محرك السيارة ينتحر ولم ينشغل الرجل بالطريق.. انشغل في تأملها وهي تداعب تروس السيارة بطريقة يدوية رشيقة.. سلمها ليلته ومعها كلمات يظنها غزل وتسمعها هزل..

نامت القاهرة مبكرًا.. لديها في الصباح الباكر انتخابات برلمانية منتظرة.. تفقد الدمياطي عبر النوافذ اللجان المعدة لاستقبال الناخبين.. قوات من الجيش والشرطة تثبت الدُشم وتعتلي الأبنية.. تحولت المدارس والمؤسسات الحكومية لمعسكرات مغلقة..

قال الدمياطي لسمر:

ـ هل تذهبين للتصويت غدًا؟

ابتسمت:

ـ لا.. لن أذهب.. هل تجد في ذلك جدوى؟

ـ طبعًا.

ـ إذًا سأذهب.. لمن أصوت في رأيك؟

ـ لا بد أن تختاري القائمة التي تدعم السياسات الحالية.. هذا هو الطريق الصائب..

قاطعته:

ـ لا.. بل طريق سهرتنا هو الطريق الصائب.. دعنا من أمور لا

أفهمها.. أرغب أن تكون ليلتنا هي الأجمل من بين ليالينا.

ـ لم أرَ منك إلى الآن ما يدلل على رغبتك.

ـ تمهل.. بالطبع تعلم أين نحن الآن.

ـ نعم.. هبطنا كوبري أكتوبر نحو العجوزة.

ـ دقائق ونصل.

ظن الدمياطي أن سمر تنوي ترك طريق النيل والانعطاف نحو المهندسين عبر طريق 26 يوليو.. تخطت 26 يوليو بثقة.. لم يبقَ أمامها إلا شارع السودان وصولاً لشارع أحمد عرابي أو ميدان لبنان.. تخطت شارع السودان ولم تلتفت.. سألها الدمياطي:

ـ أين نتجه يا سمر؟

قالت بجفاء:

ـ سأمنحك سهرة على مركب في النيل لن تنساها.

ـ النيل!!.. فكرة عظيمة حقًا.

كان المركب ساكن في حضن الشاطئ.. هبطت سمر نحو المركب وهي قابضة على يد الدمياطي الذي سار خلفها دون رهبة.. قالت:

ـ هذا المركب ينتظرنا منذ زمن.

ـ لمن هو؟

ـ هو ملك لرجل مسن.. هنا قضيت أعظم الليالي.

صعدت المركب فصعد خلفها.. جلس ملتصقًا بها وهم مداعبتها.. ركع عند قدميها يخلصها من الحذاء الرياضي الأنيق.. تأكد أن قدميها المفتاح الحقيقي لكنوزها فلثمهما بشفتيه.. شعرت بوخز كوخز الإبر في أطرافها.. اهتز المركب فاجئة فالتفت الدمياطي ليجد أمجد حاملاً نفس الموبايل الذي سبق وأن

حملـه في قصر البارون.. ذُهل الرجل.. تلجلج وتحشـرج وهو يداري عينيـه من ضوء الكاميرا المسـلط عليه.. تبيـن بصعوبة نور تقف بجانب أمجد.. قامت سـمر بعد أن رمقته بتشـفي وانضمت لأمجد ونور.. كل هذا والدمياطي فاقد القدرة على النطق وظل كما هو ساجد على ركبتيه.. بزغت عينه وتمتم:

ـ أنت؟

قال أمجد بثبات:

ـ نعم أنا.. وهذه نور «الفاكهة الأمريكي».. ومعنا المزيد.

صعـد هانـي هو الآخر المركـب بعنف.. اقترب مـن الدمياطي وجذبه من قميصه حتى وقف الرجل على قدميه:

ـ انظر إلي.. ألا تعرفني؟.. أنا هاني.. شـقيق سـمر.. أنا سجينك أيها السجان.

شـعر الدمياطي بتقلـص في معدته.. مال نحـو جانب المركب وتشبث بعمود من حديد خوفًا من الانهيار والسقوط.

قال له أمجد:

ـ انتظر يا رجل.. لدينا المزيد..

قفـز إسـلام فوق المركـب.. تحسـس الطريق نحـو الدمياطي بصفعة أسقطته أرضًا.. مال نحو الرجل وهمس:

ـ لا تنظـر إلي.. أحـذرك.. أنا إسـلام حبيب سـمر.. بعيوني نار ستأكلك وبقلبي شيطان سيغتصبك حتى الموت.

ضحك أمجد بشفقة وهو يحدث الدمياطي:

ـ ما زال لدينا المزيد يا رجل.. أخشى أن تقتلك المفاجآت..

صعد خالد المركب لأول مرة وهو يتبين كل من حوله.. اقترب هو الآخر من الدمياطي:

ـ أنا قادم من أمريكا للتعرف عليك.. اسـمي خالد.. سأمنحك موتًا جميلًا.

اقتربت نور من الدمياطي.. قالت له بعنف وهي تشير لخالد:

ـ حملت لك الهدايا من أمريكا أيها المخنث.

نطق الدمياطي لأول مرة.. قال بلسان يترنح:

ـ انتهى أمركم.. رغم كل ما جمعني بكم ما زلتم لا تعرفون من هو سمير الدمياطي.

رد أمجد وهو يعبث بالكاميرا في وجهه:

ـ لدينا من كشف لنا أمرك.. يعرف عنك كل شيء.. دلنا على الطريق وقادنا بذكاء إلى ما نحن فيه الآن..

قاطعه الدمياطي:

ـ من هو؟

قالت سمر:

ـ إنه قائدنا العظيم.

قال إسلام:

ـ قائدنا الذي رسم نهايتك بمهارة.

قال هاني:

ـ هـو في الطريـق.. لا تتعجل.. هذه عادة العظمـاء.. يصلون في النهاية.

قالت نور:

ـ تمهـل وتنفـس بقوة.. عندمـا تـرى قائدنا سـيهرب الهواء من حولـك ويذهـب إليه.. هو يحرك الهواء كما يريد.. سـتختنق يا مسكين.

قال خالد:

ـ واجـه مصيـرك يا رجل.. كـن فخورًا بما أجرمـت.. كن أي شيء هذه الليلة فلن تكون غدًا.

هتف أمجد في الجميع:

ـ فلنعـد المركب لاسـتقبال قائدنـا.. مهدوا الطريق ونسـقوا المكان ورتبوا الهواء بما يليق بقائد عظيم.

نظـروا معًا نحو الشاطئ.. لاح أبـو الدهب مرتديًـا الجمال.. لم يعرفـه الدمياطي حتى صعد المركب.. اسـتقبله جنـوده بحفاوة.. احتضنه أمجد وإسـلام وهاني وخالد وقبلته نور ومن بعدها سمر.. كان الدمياطـي يراقبـه وبداخلـه أحـلام تتداعـى وتنهـار ودمـاء تغلـي وتهرب من جحيمـه إلى النيل.. جلس أبـو الدهب في مواجهة الدمياطي.. قال للرجل المنهار:

ـ ابتسم للكاميرا.. نحن في بث مباشر عبر الإنترنت..

صرخ لإسلام:

ـ حرك المركب يا إسلام.

نطق الدمياطي مرتجيًا أبو الدهب:

ـ لماذا..

قاطعه أبو الدهب بلا تأثير:

ـ سـأخبرك.. انتظـر.. هذا هـو الخداع يـا رجل.. مـا فعلته في أمريكا كان مجرد شيء لا يذكر..

صمت أبو الدهب يشعل سيجارة.. قال لأمجد:

ـ لدينـا موقـع إلكترونـي خـاص بالحـزب يقصـده الجميع.. لدينـا أيضًا صفحة يتابعها الملايين على الفيس بوك.. باسـم رئيس الحـزب والمالك الأول للموقع والصفحة أمرتك بالبث

المباشر.. هل يسير الأمر كما نريد؟

منح أمجد الموبايل الذي ينقل البث لسمر.. قال:

ـ لدينا الآن أكثر من 50 ألف مشاهد.. تستطيع أن تخاطبهم إن أردت.

قال أبو الدهب:

ـ لا.. ليس الآن.. أريد الملايين.. انظروا للقاهرة.. أشعر أنها استيقظت للتو لمشاهدتنا.. وكالات الأنباء حتما ستبدأ يومها بحدث مثير.. أرفع مقاطع الفيديو على الموقع والصفحة.. نريدها نهاية مثالية.

قال الدمياطي بغضب:

ـ أي فيديو يا أبو الدهب؟

ـ ستشاهد أنت الآخر.. أنت بطلها.. تروي جبروتك بلسانك.

ـ لا تهدم ما بنيناه معًا يا أبو الدهب.. ما زال لدينا فرصة.

ـ ما بنيناه باطل لا بد أن يُهدم.. هو بالفعل هُدم والكثير يشاهدنا ويسمعنا الآن.

كان المركب يعدو في النيل بأقصى ما يتحمل.. وبقدر سرعته كانت سرعة الشباب.. لم يغِب أمجد وقال:

ـ انتهيت يا أبو الدهب.. ماذا الآن؟

ـ هل البث المباشر مستمر؟

ـ نعم.

ـ إذًا فلنكمل ما اتفقنا عليه حتى ننهي هذا الأمر.

جلس الشباب في ترتيب مقصود ومتفق عليه.. سمر بجانبها أمجد ثم نور ثم إسلام ثم هاني وأخيرًا أبو الدهب.. حمل خالد الموبايل وسلطه على سمر..

قالت سمر:

ـ أنا سمر.. اعتاد هذا الرجل اغتصابي لثلاث سنوات.. استخدم سلطته وجبروته وأضاع مستقبلي وأفقدني كل شيء..

بكت سمر وصمتت فانتقل المشهد نحو أمجد:

ـ أنا أمجد.. ذات ليلة صادفت هذا الرجل في قصر البارون.. كنت مدعو لحفل زفاف في حديقة القصر وقادني الفضول لحث أصدقائي على الدخول..

صمت فقالت نور:

ـ أنا نور.. وقد رافقت أمجد لداخل القصر.. كان الرجل يستخدمه من أجل نزواته مستغلًا سلطته.. لم نكن نعرف هويته ولم يعجبه وجودنا في المكان..

عاد المشهد لأمجد:

ـ احتجزنا في مكان لا نعلمه إلى الآن.. هددنا الرجل وأراد اغتصاب نور هي الأخرى.. لولا دهاء صديقنا أبو الدهب الذي تورط هو الآخر معنا..

ذهبت الكاميرا إلى أبو الدهب:

ـ أنا محمد أبو الدهب.. في هذا اليوم عرض علي هذا الرجل التورط في الفساد معه مقابل حريتنا..

عادت الكاميرا لأمجد من جديد:

ـ قال إن هذا لا يمنع من قضاء بعض الوقت في سجونه للتعرف على جبروته..

جاء دور هاني:

ـ أنا هاني.. شقيق سمر.. ثلاث سنوات قضيتها في زنزانة موحشة وهذا الحقير يغتصب شقيقتي دون أن يجد من

يمنعـه.. ذات ليلـة أو نهار.. لم أكن أعلم الدقائق والسـاعات حينها.. رافقني في الزنزانة أمجد وأبو الدهب.

التفتت الكاميرا نحو أبو الدهب من جديد:

ـ عندما رأينا هاني في الزنزانة ظنناه شـبح في البداية.. أعدنا إليه روحه ووعدناه بالخلاص.

لاح أمجد في الكدر مجددًا:

ـ بعد أيام تركنا الرجل.. خرجنا ولم نجد نور.

ذهبت الكاميرا لنور:

ـ أجبروني على ترك القاهرة والعودة لنيويورك.

جاء وقت إسلام:

ـ أنا إسلام.. صديق أبو الدهب وأمجد.. تعرضت لظلم وجبروت منذ سـنين.. تعلمـت كيف يكـون الانتقام.. عندما سـألني أصدقائي عن طريق الانتقام لم أبخل عليهم.

كان المشهد الأخير من نصيب أبو الدهب:

ـ عندمـا يكون لديك الصديق المخلص فأنت قوي وتسـتطيع أن تفعـل المسـتحيل.. كان علينـا تخليص هانـي وإعادة نور والانتقام لسـمر.. فعلنا المستحيل وخرجت من إمبابة قاصدًا نيويورك.. أنا رئيس الحزب الشهير.. أنا صانع الحزب الوهمي وهادمـه الحقيقي.. لا تذهبوا غدًا وتصوتوا لقائمته.. لو فعلتم فأنتـم تنصـرون هـذا الظالم علينـا.. والآن انتهـت الحكاية وسينقطع البث.

عندمـا انقطـع البـث أدرك الدمياطـي أن نهايته صـارت واقع.. صرخ في وجه الشباب:

ـ لماذا أنتم؟!.. سـنيني مـرت على هذا النحـو.. كان المظلوم

ينتهي بـه الأمر للتخفي والهرب.. أراكم مختلفين.. لو كنت أعلم ما فعلت.

قال أمجد:

ـ لن يجدي الندم.

ـ ولن يجدي الانتقام.

جثم إسلام فوقه قابضًا على عنقه وهو يصرخ:

ـ بل يجدي أيها الحقير.

خلصه أبو الدهب من يد إسلام:

ـ سننتقم أيها القذر.. هذه نهايتك..

قاطعه الرجل وهو يضحك ضحكات جافة:

ـ ستصبحون مثلي.. مثلما قتلت ستقتلون.. سيأتي من ينتقم لي منكم ولن تخرجوا من هذه الدائرة.

تدخلت نور:

ـ لماذا لا نتركه للإعلام والقضاء؟

صرخ فيها أبو الدهب:

ـ يقتلون الصحفي والقاضي.. لن نتركه.

قال خالد:

ـ لماذا تجدون القتل شيئًا صعبًا.. الموت أسهل مما تتخيلون.. أتركوا لي هذا الأمر.

دفعه إسلام بعنف:

ـ من أنت؟.. هذا شأننا نحن.. نحن من ظُلمنا.

تسلل هاني نحو الدمياطي:

ـ هذا شأني أنا.. سأقتله ولن أندم.. أنا مدفوع بمرارة لا يشعر

بها أي منكم.

صرخت سمر:

ـ لا يا هاني..

صرخ أمجد في الجميع:

ـ علينا أن نهدأ ونقرر قبل أن يأتي من يخلصه من أيدينا.. الشمس لن تتأخر.. ماذا سنفعل يا أبو الدهب؟

قال أبو الدهب بوضوح:

ـ أنا من سينهي هذا الأمر بالطبع.

قال الدمياطي محاولًا التماسك:

ـ لو كان لي حق الاختيار.. أختارك أنت أيها المخادع البارع.. ستبني الأمجاد.. لن تعود كما كنت.. أنت تشبهني يا أبوالدهب.. اعتدت صناعة الأمجاد وبموتي أبني مجدًا جديدًا.. أنت أعظم إنجازاتي يا فتى.. تشجع وخلصني من هذه الحياة.

قال أبو الدهب بثبات:

ـ سأفعل.. أعلم أن إيمانك بي أصبح مطلقًا.. أنا رأيت الإعجاب بعيونك قبل أن تدخلنا سجنك.. أنا ماكر وأجيد كل شيء.. صرت أنا الآخر أؤمن بذلك.. لطالما سجدت عيونك أمامي انبهارًا.. تخيل هذا الذي أمامك كان من الممكن أن ينتهي أمره برصاصة غادرة في شوارع بلده.. تخيل أن الذي أمامك رأى الأذكى والأقوى يموتون غدرًا ويفنون من الدنيا من أجل أن تحيا أنت.. الغدر لا يجدي معه الذكاء والمكر والقوة... كل الذين ماتوا غدرًا في هذه الدنيا ماتوا أقوى من قاتليهم.. تغدر من أجل ألا تفقد سجنك الشخصي..

مـن أجـل أن تغتصب فتاة مسـكينة وتسـجن أخيهـا.. انظر لأصدقائــي غيرهــم الظلم والجبروت أما أنــا غيرتني الثورة.. لـن تموت هذه الفكرة العظيمـة.. وبالمثل لن يموت أمثالك.. التاريـخ مقسـم بيننا وبينكم.. تقاسـمنا النجـاح والخيبات.. أنـا عدوك قبـل أن تعادي أصدقائي ويعـادوك.. لقد أعطوني الفرصة ليس أكثر.. ليست أم المعارك لأسميها انتصار.. قد يذكرنا التاريخ وقد لا يفعل.. لكني سأحتفل على جسدك.. سـأمنحك فرصة أخرى لتندهش وتبدي أعجابك.. ستسلمني جسدك بنفس راضية.. سأمنحك نهاية أخرى.. نهاية أخرى..

* * *

يقضي الإنسان ثلث حياته نائمًا.. أثناء النوم المخ لا يهدأ.. تحدث أشياء معقدة بداخلنا.. قد نمرض في نومنا مرضًا حقيقيًا ونشفى قبل أن نستيقظ.. كل هذا لو نمنا في حالة مزاجية مثالية.. فماذا لو نمنا انهيارًا وهربًا وخوفًا..

كان برد الصباح يضرب في جسد الدمياطي.. افترش سطح المركب بجسده.. استيقظ فاقدًا لكل ما حوله.. هرب إلى الرصيف.. كانت القاهرة فارغة فراغ الأعياد بل أكثر.. ربما يكون الذهاب للحدائق والملاهي ودور السينما عند المصريين مفيدًا أكثر من المثول أمام صندوق من زجاج.. حاول الدمياطي تفسير ضياعه.. قُتل الرجل مرات ومرات في نومته.. مات غرقًا ومات ذبحًا ومات احتراقًا.. أخرج هاتفه.. كان مغلقًا على غير العادة.. عانى حتى يحصل على اسم عصام.. لم يفكر في عصام.. كان عاجزًا عن التفكير.. اهتدى إليه كهداية الطفل لحضن أمه وأمن أبيه.. جاء عصام وهو يتعجب لأمره.. قال الدمياطي لعصام بمرارة:

ـ ماذا حدث؟

رد عصام باهتمام:

ـ ماذا تقصد يا باشا؟

ـ الحزب.. الانتخابات.. هل أنا انتهيت يا عصام.

ـ خرج الناخبون وحزبنا في المقدمة.. أتيت للتو من غرفة العمليات التي تدير كوادر الحزب وناخبيه.. رئيس الحزب ناجح إلى الآن في إدارتها.

ـ من؟!.. رئيس الحزب!!.. من هو؟

ـ محمد أبو الدهب.

ـ خذني إلى هذا الحقير فورًا يا عصام.

كان الحزب ممتلئ بأعضائه المشغولين بالهواتف وشبكة الإنترنت والقنوات الفضائية.. حركات سريعة وهمسات هنا وهتافات هناك.. بدا للرجل أن كل شيء يسير بشكل طبيعي.. تأكد عندما رأى أبو الدهب في القلب من كل هذا.. تخطى الجميع حتى وقف في وجهه.. بادره أبو الدهب وهب مرحبًا:

ـ أهلًا بك يا معالى الباشا.. اشتقت لك في سفري.

ظل الدمياطي صامتًا يتأمل أبو الدهب بخوف.. صافحه أبوالدهب وهو يقول:

ـ يبدو أنك لم تشتقْ لي.. هيا إلى مكتبي.

سار أبو الدهب نحو المكتب واندفع خلفه الرجل الذي قال دون مقدمات:

ـ هذه نهايتك.

تعجب أبو الدهب:

ـ كل هذا من أجل خطاب.. انتظر فقد تعجبك النتيجة..

ـ أنت تعلم مقصدي..

دخل هاني المكتب حاملًا أوراق من أجل أبو الدهب.. قفز الدمياطي وأمسك بتلابيبه:

ـ أنت الآخر لن تفلت أيها القذر.

تخلص هاني من يد الرجل وهو يصرخ في وجهه:

ـ من أنت؟.. أتركني.

قال أبو الدهب للدمياطي:

ـ يبدو أنك مشوش بعض الشيء.. اذهب إلى البيت واسترحْ.. أعلم أنك تحت ضغط كبير.. سننتصر وسنحصل على الأغلبية.

أخرج الرجل هاتفه في محاولة أخيرة من أجل اليقين.. أجرى اتصالاً بسمر.. جاء صوتها يعاتبه:

ـ انتظرتك عند قصر البارون أمس ولم تأتِ.. لماذا أغلقت هاتفك.. أن غاضبة منك.

أغلق الرجل الخط.. أمسك رأسه الذي ساح بين يديه.. نادى عصام بلا صوت.. وقف على أقدم من عجين.. هوى وسقط على الأرض.. لم يتحمل.. جاءت سيارة إسعاف وحملته على عجل.

في المساء ذهب أبو الدهب إلى المستشفى لزيارة المريض.. استفسر عن سبب السقوط.. جلطة دماغية كادت أن تنهي حياة الرجل الذي صار الرجل يهذي بكلمات ثقيلة غير مفهومة.. فقد السيطرة على أطرافه اليمني وهدل فمه.. تسلل أبو الدهب نحو غرفته.. عندما دخل على الدمياطي ظن الرجل أن الموت يرافقه.. أدرك أبو الدهب خوفه.. مال عليه وهمس:

ـ ستنجو.. ما زال لدينا متسع من العمر.. أنت الآن فاقد القدرة على الذهاب للحمام.. ادركوا ذلك فوضعوا لك حفاظة طفل.. قد تكون لحفيدك.. لا أدري ولكن ماذا لو جئنا بسمر إليك.. أنت تعلم أن هذه الفتاة أنيقة وساحرة.. أنت الآن أخر من يرغبها في هذه الدنيا.. أنت انتهيت والموت يبخل عليك.. لو استطعت سلمتني جسدك لأخلصك.. دعني أرقص عليه أولاً.. أما الخلاص ليس الآن.. سأمنحك نهاية أخرى.. نهاية أخرى..

* * *

عاد أبو الدهب إلى إمبابة.. قصد النيل فكان أمجد ونور وكانت سمر وإسلام.. سافر هاني من أجل أسرته.. وقف أبو الدهب عند الشاطئ يفكر في جنوده وهم يرقصون على جسد الدنيا بكلمات الغزل والقبلات.. هبط إليهم في خجل.. هتف من بعيد:

ـ سأعود إلى أمي.. أمنحني سيجارة يا إسلام وسأتركك وأذهب في سلام.

قالت سمر:

ـ نحن هنا من أجلك يا أبو الدهب.

قالت نور:

ـ أشتاق إليك.. لن تذهب.. تعالَ..

هتف أمجد:

ـ أمنحه كل الحشيش حتى يذهب يا إسلام.. الليلة لسنا في حاجة لشيء..

قفز أبو الدهب نحو أمجد.. حمله من مكانه وجلس بجانب نور وهو يقول:

ـ ولماذا لم تبحر يا ابن رجال الأعمال.

ضحك إسلام.. قال:

ـ ننتظر «الأسطى عيد».

سأل أبو الدهب:

ـ من هو؟

رد أمجد:

ـ السائق الذي حكى لنا قصة أصحاب القرية.. هاتفني أكثر

من مرة يطلب الحشيش.. عندما طلب خالد تاكسي يرافقه طلبت له "الأسطى عيد".. عائد من المطار الآن.. نمنحه ما يريد ثم نبحر.

قال أبو الدهب:

ـ سنشتاق لهاني وخالد.

قالت نور:

ـ لن نشتاق لأحد.. العالم الآن أصبح عالمنا.. تنقلت بين ثلاث قارات في ساعات.. لا بد أن نفخر بأنفسنا.. لا بد أن نفخر بك يا أبو الدهب.

قالت سمر بود:

ـ عندما رأيتك على الشاشات وسط رؤساء الدول.. على أغلفة المجلات وصفحات الجرائد.. سألت إسلام هل هذا لأجلنا؟.. من أجلي وأجل شقيقي!.. قال بحدة: نعم.. لو تعلم كيف أنظر إليك..

اقتربت من أبو الدهب ومنحته قبلة ومالت على كتفه.. تماسك أبو الدهب في حضن الساحرتين.. أشار لأمجد وإسلام وقال راسمًا الجد:

ـ أحملا حشيشكم وابحثا عن أمي.

جاء الأسطى عيد مسترشدًا بصوت الضحكات.. هتف بالسلام ثم قصد أمجد:

ـ أتحتاج شيء يا أستاذ أمجد.

قال أمجد لإسلام:

ـ لا تبخل عليه.

قام إسلام نحوه.. قال له أبو الدهب:

ـ لا تمنحه شيء.. أريده أولاً.

جاء الرجل المسن باستحياء.. قال لأبو الدهب:

ـ أتحتاج شيء يا باشا؟

ـ أجلس يا عم عيد.. أريد أن أشتكي إليك حالي واستأنس بك.

ـ إذا معي "الجوزة" في التاكسي.. هل أجلبها؟

ـ نعم.. لا تغِب.. سنبحر.

همست نور:

ـ يا لحظك أيها المسن.

جاءت الجوزة معها المعسل وفحم سريع الاشتعال.. أشعل الرجل الحجر ومنحه لأبو الدهب.. قال:

ـ الأستاذ خالد صديقك؟

ـ نعم.

ـ شخصية غريبة.

ـ كيف؟

ـ ذهبت معه في الصباح إلى كفر الشيخ.. عدنا مع الغروب.. لو رأيته بين أسرته لن تعرفه.. هو طفل بينهم.. صديق الجميع.. يداعب الأطفال.. كان بين أسرته شيء ومعي شيء آخر.. كان غامض دائمًا.. قال لي قبل أن نتوجه للمطار لدينا طريق آخر.. ذهبنا إلى مستشفى في قلب القاهرة.. أراد زيارة مريض.. تعجبت ونصحته بالعدول عن الفكرة.. كان انتصاف الليل يقترب.. قال إن هذا هو الوقت المناسب.. لا أعلم كيف تسلل للداخل.. عاد بعد أقل من 15 دقيقة.. كان راسمًا وجهه بالنار.. نظرت إليه في قلق.. قال إن هذا من أجل صديق.. من أجل أبو الدهب..

قاطعه أبو الدهب:

ـ انتظر.. أين هذه المستشفى.

ـ في وسط البلد بالقرب من بنك شهير.

صرخ أبو الدهب:

ـ لقد خلص الدمياطي مني.

همست نور:

ـ قتله؟!

ـ نعم.. خلصه وأخرجني من طريق موحش.. سأستقيل من الحزب وأعود كما كنت.. هكذا أراد لي.. هذا الشاب رافقته في الميدان.. لطالما كان الميدان مصنع الرجال.. ماذا لو عودنا معًا.. ماذا لو عودنا؟!

قاطعته سمر:

ـ يقولون إن القادم سعيد.. لماذا الميدان؟.. سيبنون المدن والمصانع ويقضون على الظلم..

مط أبو الدهب شفتيه في غل.. أدركت سمر الخطر.. ركضت نحو مقدمة المركب في مرح.. طاردها أبو الدهب وهو يصرخ باللعنات.. خلصها إسلام من يده.. صرخ أبو الدهب فيها:

ـ جميلة بطريقة مستفزة.. أين عقلك..

ضحكت نور ساخرة:

ـ بنات مصر يمارسن السياسة كمن يمارسون الرياضة الصباحية من أجل الرشاقة..

قال أمجد:

ـ دعونا من هذا..

قاطعه أبو الدهب:

ـ ماذا تريد؟.. تريد الحب.. إذا أذهب إلى هناك عند مقدمة المركب ومعك حبيبتك.. قودنا بالغزل..

توجه إلى إسلام:

ـ وأنت وسمر اذهبا عند نهاية المركب.. أحمونا بالعناق والقبلات..

ثم نظر للأسطى عيد:

ـ ونحن ماذا سنفعل؟

قال الأسطى عيد وهو قابض على الجوزة:

ـ أي شيء.. أجلس أولاً.. أغني.. ما رأيك؟

توزع الأصدقاء في أماكنهم.. جلس أبو الدهب مع الرجل المسن يشعلون النار في السكون فينتشون ويسعدون.. قال للرجل:

ـ غني.

ـ غنى الرجل كلمات «بديع خيري»..

"ورينا أجدع بيه والا باشا يقدر يعايب على الحشاشا

فشر يا دقدق صلى ع الزين

وأقول لك الحق يوم ما نلقى بلادنا طبت في أي زنقة

يحرم علينا شريك يا جوزة روحي وأنتٍ طالقة مالكيشي عوزه

دي مصر عايزه جماعة فايقين.. يا مرحب.."

غنى معه أبو الدهب وأمجد وإسلام ونور ورقصت سمر.. طلت الشمس تزاحم القمر وتطرد النجوم وتفرش النور..

* * *